جامعة أم درمان الإسلامية

كلية الآداب

قسم التاريخ و الحضارة الإسلامية

أهل الذمة في العصر العباسي الأول

١٣٢ - ٢٤٧ هـ (٧٥٠ - ٨٦١ م)

(رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي)

إعداد الطالب :

الأمين الشيخ النور

إشراف البروفيسور :

عبد الباقي محمد أحمد كبير

التاريخ : ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م

مقدمة البحث

١- أهمية الموضوع:-

تبرز أهمية موضوع البحث (أهل الذمة في الدولة العباسية في عهدها الأول)، لعدة أسباب :-

أولاً :- أن الدولة الإسلامية في تلك الفترة التي تمتد من سنة ١٣٢ هـ حتى ٢٤٧ هـ (٧٥٠ م - ٨٦١ م)، تمثل قمة الحضارة الإسلامية، فمن الواضح إذن أن علاقة الدولة الإسلامية في تلك الفترة تمثل الدور التاريخي الواضح في تعاملها مع أهل الذمة كرعايا من رعاياها و منتمين لها، و قد أسهم أهل الذمة مع إخوانهم المسلمين في دفع عجلة الحضارة الإسلامية[١]، و كان لهم إسهاماتهم المقدرة التي لا ينكرها أحد. فقد تأثروا بالمجتمع الإسلامي و أثروا فيه.

ثانياً :- و تأتي أهمية هذا الموضوع في قلة البحوث التي تناولته، فمثلاً نجد ممن تناوله ابن قيم الجوزية في كتابه (أحكام أهل الذمة)، و قد عالج موضوعه من منظور فقهي، أي أحكام أهل الذمة من النواحي الشرعية و ما ينبغي أن تكون عليه معاملاتهم بموجب الشرع الإسلامي .

كما تناول الموضوع أيضاً المؤرخ أ. س تريتون في كتابه (أهل الذمة في الإسلام)، و يرتكز في كتابه على عهد عمر بن الخطاب الذي قطعه لأهل دمشق، و هو ما يعرف باسم الشروط العمرية، و هو موضوع بحث عام يشمل الدولة الإسلامية منذ نشأتها حتى نهايتها بصورةٍ عامة.

أما موضوع بحثنا، فيتناول فترةً محددةً للدولة الإسلامية (العصر العباسي الأول)، و لا يهتم كثيراً بما ينبغي أن يكون عليه الحال مع أهل الذمة من الناحية الفقهية،

---

١) م) محمود اسماعيل: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت الطبعة الثالثة ١٤١٣ هـ ص ١٧١.

بل يتناول ما كان عليه وضع أهل الذمة و أحوالهم فعلاً في ذلك الحين، سواءً كان ذلك متفقاً مع ما يراه الشرع الإسلامي تجاه أهل الذمة، أو كان مخالفاً له.

٢- أسباب اختيار الموضوع:-

إن الفترة المذكورة آنفاً للعهد العباسي الأول تبين بوضوح معاملة أهل الذمة داخل المجتمع الإسلامي، و من خلال هذه الدراسة سيتضح لنا إن كانت تلك العلاقة و المعاملة طيبة و حسنة أم غير ذلك. فقد عاش أهل الذمة في كنف الدولة العباسية التي كفلت لهم حقوقهم العامة، كما أنهم تفاعلوا مع المجتمع الإسلامي و ساهموا فيه بجهودٍ واضحة في كافة المجالات(١).

و كان من أهم أسباب اختيار هذا الموضوع، ما عليه حال عالمنا الإسلامي المعاصر، كدولٍ يعتبر الإسلام عقيدتها الأولى، و بما أنه يعيش في ظل دول عالمنا الإسلامي أعدادٌ لا يمكن تجاهلها أو الاستهانة بها من أتباع الملل و الديانات الأخرى غير الإسلامية، مما أدى إلي كثيرٍ من المشاكل و المتاعب لدولنا المعاصرة.

خاصة و أن بعض الدول و الدوائر النشطة استغلت تلك الظروف و الأوضاع الجغرافية المعقدة لمناصرة تلك الأقليات و محاصرة الإسلام و دوله، و العمل على القضاء عليه بمنع انتشاره و الإساءة لمعتنقيه.

و قد كونت تلك الدول الهيئات و المنظمات، و صرفت عليها الأموال الطائلة بحجة اضطهاد الأقليات التي لا تدين بالإسلام.

و نتج عن هذا الوضع صراعٌ مستمرٌ بين دولنا الإسلامية و تلك التيارات المضادة، مما أدى إلى تأثير ذلك على تاريخنا الإسلامي و ما يجب أن يكون عليه مستقبلاً.

فقد أبدت تلك الدول الأجنبية و منظماتها و هيئاتها الاهتمام بأولئك الرعايا الذين يعيشون بيننا في مجتمعاتنا الإسلامية، و سخرت كافة إمكانياتها المادية و البشرية، من اجل التدخل و التغلغل لفرض سياساتها التي تخدم أغراضها الظاهرة و الباطنة، كما

---

(١) شاكر مصطفى:- دولة بني العباس، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى ، سبتمبر ١٩٧٣ م، ج ٢ ص ١٠٥.

عملت على زرع بذور الفرقة و الشتات بين مجتمعاتنا الإسلامية حتى لا تقوم لها قائمة لاستعادة أمجادها القديمة.
فمن خلال هذه الدراسة، لعلنا جميعاً نستفيد من الأحداث التاريخية لمسيرة حضارتنا الإسلامية و تعاملها و تفاعلها مع الغير، مما يمكن أن نسير على ضوئه في واقعنا حاضراً و مستقبلاً.

و من الأسباب لاختيار هذا الموضوع حاجتنا الحالية في هذا العصر لمفهوم جديد لمصطلح (أهل الذمة) الذي نعتقد أن مفهوم المواطنة قد حل محله الآن في دولنا الإسلامية.

و من أسباب اختيار هذا الموضوع أيضاً ضآلة الدراسات السابقة التي تناولته كدراسة أكاديمية، و عليه فقد اخترت هذا الموضوع، باذلاً قصارى جهدي لأخطو خطوةً في هذا الدرب، حتى تتضح الحقيقة لكل منصفٍ و عادلٍ في حكمه. فنسأله تعالى التوفيق لإبراز الحق الذي نسعى من أجله.

٣- المنهج المتبع في معالجة الموضوع:-

قمت بعرض حجج أهل الذمة و ما أوردوه من قيودٍ و مضايقاتٍ فرضت عليهم من قبل الدولة العباسية، ثم فندت تلك الحجج و أوضحت الأسباب التي أدت إلى ذلك. كما أوضحت ما تمتع به أهل الذمة من حريةٍ تامةٍ و مشاركتهم الحياة العامة دون نظرةٍ للعرق أو الدين، كما بينت أن مثل تلك القيود فرضت أيضاً على بعض طوائف المسلمين.

أما في طريقة جمع المادة العلمية فقد اتبعت طريقة (الملف)، حيث قسمت البحث إلى فصولٍ يندرج تحت كل فصلٍ عدة مباحث. ثم ختم البحث بخاتمة عامة.

كان الفصل الأول بعنوان (أحكام أهل الذمة في الإسلام) تناولت فيه مدلول أهل الذمة، ثم ما لأهل الذمة من حقوقٍ و ما عليهم من واجباتٍ داخل الدولة الإسلامية ، و يرتكز هذا الفصل على وجهة النظر الدينية و الأحكام الفقهية التي تضبط معاملتهم و وضعهم داخل المجتمع الإسلامي.

أما الفصل الثاني من البحث فهو بعنوان (أهل الذمة في صدر الإسلام)، بينا فيه أوضاعهم و أحوالهم منذ العهد النبوي و العهد الراشدي حتى عهد بني أمية، و في هذا الفصل يتضح لنا بجلاء التطبيق الفعلي للأحكام الفقهية تجاه أهل الذمة، و الالتزام التام بالعهود و المواثيق التي منحت لهم .

أما الفصل الثالث و هو (أهل الذمة في العصر العباسي الأول)، فقد أوضحت فيه الموقف العباسي من أهل الذمة، و ما كان عليه حالهم من في ظل الدولة العباسية، من استخدامهم في وظائف الدولة، و ما كان من علاقاتٍ معهم و مع مؤسساتهم الدينية. ثم حياة أهل الذمة العامة و تفاعلهم في المجتمع الإسلامي، و ما بذلوه من جهودٍ علمية لها دورها في الحضارة الإسلامية.

أما الفصل الرابع و الأخير فهو بعنوان(الجدل الديني مع أهل الذمة و قضايا الاضطهاد)، يندرج تحته الجدل مع أهل الذمة مما يوضح مدى ما تمتعوا من حريةٍ تامةٍ في عصر الدولة العباسية الأول، ثم علاقة أهل الذمة مع الدول الخارجية و أثر ذلك في علاقتهم بالدولة العباسية، و أخيراً تناولت قضايا الاضطهاد أو التمييز و الأسباب التي أدت إلى ذلك.

٤- أهم المصادر و المراجع:-

لقد استعنت في جمع مادة البحث ببعض المصادر و المراجع التي أعانتني كثيراً في مجال بحثي. فكان من المصادر الأساسية للبحث " كتاب الخراج" لأبي يوسف (١٩٢هـ) و الذي يحتوي على :-

١- كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف.
٢- كتاب الخراج للإمام يحي ابن آدم القرشي
٣- كتاب الاستخراج لأحكام الخراج لابن رجب الحنبلي.

ثم كتاب " الأموال" لأبي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ)، و كتاب "الأحكام السلطانية" للماوردي (٤٥٠هـ)، و كتاب "أحكام أهل الذمة" لابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، و هذه الكتب تبين فقه الخراج. ثم تاريخ الطبري (٣١٠هـ) و ابن الأثير (٦٣٠هـ)، و هذه تتناول التاريخ السياسي الحربي و بعض الحقائق المنثورة عن الاقتصاد.

و من المصادر الهامة في البحث كتاب " فتوح البلدان " للبلاذري (٢٧٩ هـ) ، و فيه وصفٌ للفتوح و يروي كثيراً من الأخبار عن أعمال أو ظواهر اقتصادية في مختلف الأقاليم و الأمصار. أما كتاب " الوزراء و الكتاب " للجهشياري (٣٣١ هـ) ففيه وقائع و تفاصيل عن أنظمة الخراج و الدواوين و الوزارة. ثم كتاب "الفخري في الآداب السلطانية" لابن طباطبا و فيه سير الخلفاء و تصرفاتهم المالية.

و من المصادر الهامة كتاب المقريزي " المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار "، و هو يعنى بتاريخ مصر و أخبارها الاقتصادية و شئونها المالية، هذا بجانب طائفة من الأخبار و الأحكام و المعلومات المتعلقة بالخراج و الدواوين و النقود و السياسات المالية.

هذا بجانب كتب الفرق ككتاب " الملل و النحل " للشهرستاني، و " مقالات الإسلاميين " للأشعري، كما استفدت كثيراً من " معجم البلدان " لياقوت الحموي في توثيق ما ورد من أسماء البلدان و الأقاليم.

هذا فضلاً عما كتبه " الجاحظ " في رده على النصارى. و غير ذلك من الكتب ككتاب " أهل الذمة في الإسلام " لتريتون" و كتاب " بطاركة كرسي المشرق" لعمر بن متى، و كتاب " تاريخ الحضارة " لبارتولد ".

هذا بجانب الكتب الحديثة التي أعانتني كثيراً في بحثي و هي تلك الكتب التي تهتم بالنظم و الحضارة الإسلامية، مثل كتاب على حسنى الخربوطلي و كتاب فتحية عبد الفتاح النبراوي و كتاب الدكتور صبحي الصالح و كتاب الدكتور محمود إسماعيل و كتاب الدكتورين حسن علي حسن و الدكتور التوم الطالب.

٥- المشكلات التي واجهتني في جمع المادة:-

لقد عانيتُ كثيراً في جمع العلمية لهذا البحث خاصة و أن ما كتب عن هذا الموضوع يعتبر قليلٌ من وجهة النظر التاريخية، رغم إسهاب الفقهاء في الكتابة عنه من الوجهة الدينية.

و لندرة ما كتب في هذا الموضوع فقد حصلت على بعض مصادره من مصادر شتى، فكنت أجد نتفاً متفرقة عن الموضوع هنا و هناك مما جعلني أعاني كثيراً في جمع تلك النتف و الربط بينها.

٦- الشكر لمن اسهم في هذا البحث :-

أتقدم بجزيل شكري و تقديري لأستاذي أ. د. عبد الباقي محمد كبير، الذي أفادني كثيراً برأيه و ملاحظاته التي مهدت لي الطريق الذي كنت أراه شائكاً، فقد ترددت عليه كثيراً في منزله و في الجامعة و استفدت من علمه الغزير مما كان له أبرز الأثر في خروج هذا البحث إلى الوجود، فجزاه الله خير الجزاء.

كما أسجل شكري لأسرة جامعة الملك عبد العزيز أساتذة و طلاباً في تعاونهم معي، و مدي بما احتجت إليه من مراجع، و ما أبدوه من ملاحظاتٍ لها أهميتها في إخراج هذا البحث بصورته النهائية.

و أخيراً أسأل الله تعالى التوفيق لما يرضيه، و أسأله أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم. كما أدعوه تعالى أن ثيب كل من ساهم في هذا البحث و إخراجه بصورته النهائية. آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. ربنا عليك توكلنا و إليك أنبنا و إليك المصير. وصلى اللهم على محمدٍ و على آله و صحبه وسلم.

الفصل الأول

أحكام أهل الذمة في الإسلام

١- مدلول أهل الذمة

٢- عقد الذمة و شروطه

٣- حقوق و واجبات أهل الذمة

١- مدلول أهل الذمة

الذمة لغةً و اصطلاحاً:-

ما كاد الرسول صلى الله عليه وسلم، يستقر في المدينة، حتى شرع في تأسيس الدولة الإسلامية، بوضعه الأسس و النظم التي تصون وحدتها و تنظم العلاقة بين سكانها من مهاجرين و أنصارٍ من جهة و بين يهود يثرب و غيرهم من جهةٍ أخرى. و بيّن ما لكلٍ من حقوقٍ و ما عليهم من واجبات.

و اكتملت عناصر تكوين الدولة الإسلامية، بخضوع جميع أهل يثرب من مهاجرين و أنصار و غيرهم لسلطاته، كما تمثلت سيادته الخارجية في استقبال الملوك و الأباطرة و الرؤساء و الأمراء للوفود التي بعثها إليهم، و في استقباله هو صلى الله عليه وسلم الوفودَ التي جاءت إليه من قبل أولئك الملوك و الأباطرة و الأمراء.

و بعد انتقاله صلى الله عليه وسلم للرفيق الأعلى، اتسعت الدولة الإسلامية، و ضمت بداخلها أعداداً لا يستهان بها من أهل الديانات الأخرى، الذين تمتعوا بحق الموطنة مثل ما تمتع به إخوانهم من المسلمين. و قد ساهموا جميعاً في دفع عجلة الحضارة الإسلامية التي انتفعت بها البشرية جمعاء.

فالذمة لغة هي العهد و الأمان و الضمان(١). و الذَمُّ ضد المدح؛ و الذمام الحُرْمة، أهل الذمة أهل العقد. و قال أبو عبيد : الذمة الأمان في قوله صلى الله عليه وسلم " و يسعى بذمتهم أدناهم ". و أذمه أجاره(٢).

أما اصطلاحاً فقد أُطلق لفظ الذمة على طبقة من طبقات المجتمع الإسلامي، ظلت على معتقداتها و دياناتها القديمة، من يهود و نصارى ومجوس، ممن يقيمون في دار

---

(١)الفيروزبادي : القاموس المحيط، مطبعة دار المأمون بالقاهرة، الطبعة الرابعة، ١٣٥٧ هـ، ج ٤ ص ١١٥.

(٢) مادة ذمم (الذّم) : مختار الصحاح، الطبعة الخامسة ١٩٩٨ م ص ٢٢١.

الإسلام و يعيشون في ظل دولته[١]، مقابل دفع جزية للمسلمين حددتها الشريعة الإسلامية، و بدفعهم لتلك الجزية تكون لهم ذمة على المسلمين، تكفل لهم الأمان على أرواحهم، و أعراضهم، و أموالهم، و ممارسة شعائرهم الدينية دون تدخل من الإدارة الإسلامية، وفقاً للقاعدة الأساسية، في قوله تعالى:-(لا إكراه في الدين..)[٢] . و عليه، فلفظ " ذمي " يطلق على من تؤخذ منه الجزية، من أهل الكتاب، من يهود و نصارى، فيجري مجراهم المجوس في أخذ الجزية منهم و عقد الذمة لهم و إن حرم أكل ذبائحهم و نكاح نسائهم.

إن آية الجزية صريحة في أخذ الجزية من أهل الكتاب و عقد الذمة لهم، لقوله تعالى: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله و لا باليوم الآخر و لا يحرمون ما حرم الله و رسوله و لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد و هم صاغرون)[٣].

و أما المجوس فقد ثبت جواز عقد الذمة لهم بالسنة القولية و الفعلية، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم :
(سنوا بهم سنة أهل الكتاب)[٤]، كما أخذ عليه الصلاة و السلام الجزية من مجوس هجر[٥].

كما أدخل في أهل الذمة الصابئة* و السامرة*، إذا وافقوا اليهود و النصارى في

(١) حسن علي حسن و التوم الطالب (بالاشتراك) : تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ص ١٣٢.
(٢) سورة البقرة: آية ٢٥٦.
(٣) سورة التوبة : آية ٢٩.
(٤) أبو عبيد بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) : كتاب الأموال (تحقيق و تعليق خليل هراس)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، ص ٣٧.
(٥) الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٣٧٠ هـ) : أحكام القرآن، مطبعة الأوقاف الإسلامية في دار الخلافة العلية بالأستانة ١٣٣٥ هـ ، ج ٣ ص ٩١ ــ ٩٣.
* الصابئة الذين يعبدون النجوم و الكواكب، و يزعمون انهم على ملة نوح عليه السلام، الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر الشيباني (٤٧٩ ــ ٥٤٨ هـ) الملل و النحل، دار المعرفة بيروت، الطبعة الخامسة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ، ج ١ ص ٢٧٥، ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م، ج١ ص٨٤.
* السامرة :- مذاهبهم ممتزجة من اليهودية و المجوسية ... و لا يقرون بنبوة من كان بعد موسى عليه السلام من انبياء بني اسرائيل. الملل و النحل، ج ١ ص ٢٦٠

أصل معتقدهم[١] و إن خالفوهم في فروعه، ولا تؤخذ منهم جزية و لا تعقد لهم ذمة إذا خالفوا اليهود و النصارى في معتقدهم.

مشروعية الجزية:-

الجزية كما سبق أن أشرنا ثابتةٌ بنص القرآن الكريم، كما ورد في الآية (٢٩) من سورة التوبة. و الجزية المذكورة في نص الآية هي مبلغٌ من المال يوضع على الرؤوس و تسقط بالإسلام. و تؤخذ ممن له كتاب أو شبهة كتاب[٢]، و لا تؤخذ جزية من مرتدٍ و لا دهريٍ و لا عابد وثن[٣].

و الأصل في فرض الجزية على الذميين إيجاد التوازن في الدولة عن طريق التكافؤ. فالمسلمون و الذميون في نظر الإسلام رعية لدولةٍ واحدةٍ، و من هنا فرضت الجزية على أهل الذمة، في مقابل فرض الزكاة على المسلمين، فكأن أهل الذمة أعطوها جزاء ما منحوا من الأمن، و كل شخصٍ يجب عليه الجهاد فيما كان لو كان مسلماً تجب عليه الجزية ما دام غير مسلم إتماماً لمعنى التكافؤ و التقابل[٤].

تقدير الجزية:-

اختلف الأئمة في تقدير الجزية، و ذلك لأنها غير مقدرة بالشرع تقديراً لا يقبل الزيادة و النقصان، و لا معينة الجنس[٥].

فذهب أبو حنيفة إلى تصنيف أهل الذمة إلى ثلاثة أصناف هي :-

١- الأغنياء و يؤخذ منهم ثمانية و أربعون درهماً.

---

(١) الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت٤٥٠ هـ) : الأحكام السلطانية، مكتبة دار ابن قتيبة – الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م ، ص ١٨٣.

(٢) أبو يعلي محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ت ٤٥٨ هـ) : الأحكام السلطانية، الطبعة الثانية، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م، مصر، ص ١٥٤.

(٣) نفسه، ص ١٥٤.

(٤) محمد ضياء الدين الريس: الخراج و النظم المالية للدولة الإسلامية، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة ١٩٦٩ م، ص ١٣١. صبحي الصالح : النظم الإسلامية، ص ٣٦٤.

(٥) ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر (٧٥١ هـ) أحكام أهل الذمة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م، ج ١ ص ٤٠.

٢- الأوساط و يؤخذ منهم أربعة و عشرون درهماً.

٣- الفقراء و يؤخذ منهم إثنا عشر درهماً(١).

أما ابن رشد فيرى أن الإمام مالك يرى أن القدر الواجب في ذلك هو ما فرضه عمر رضي الله عنه، وذلك على أهل الذهب أربعة دنانير و على أهل الورق أربعون درهماً، و مع ذلك أرزاق المسلمين و ضيافة ثلاثة أيام لا يزاد على ذلك و لا ينقص منه(٢).

أما الشافعي فذهب إلى أنها مقدرةٌ بدينار، و لا يجوز الاقتصار على أقل منه ، و عند غيره مقدرة الأكثر، فيرجع في ذلك إلى اجتهاد الولاة، فيجتهد الوالي رأيه في التسوية بين جميعهم أو التفضيل بحسب أحوالهم(٣).

و إذا اجتهد الوالي في عقد أهل الذمة، فلا يجوز لمن يتولى الأمر من بعده، و لا يحق له أن يغير بزيادةٍ أو نقصانٍ، بل تستمر على ما صولحوا عليه(٤).

من لا تجب عليه الجزية من أهل الذمة:-

لا تجب الجزية إلا على الحر القادر، فلا تؤخذ من مسكين يتصدق عليه، و لا على الزمن الذي يمنعه مرضه المزمن من العمل، و لا على المقعد، و لا على الرهبان في الأديرة، و لا على المرضى، و لا على الصبيان، ولا على العبد المملوك، و لا على النساء(٥).

و في ذلك تتضح لنا سماحة الإسلام و عدله في مراعاة ظروف و أوضاع أهل الذمة.

---

(١) ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي : بداية المجتهد و نهاية المعتقد، دار المعرفة، بيروت، الطبعة التاسعة١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م، ص ٤٠٤.
الماوردي : الأحكام السلطانية، ص ١٨٤.
يحي بن آدم : الخراج ، ص ٢٣.
(٢) ابن رشد : المصدر السابق، ص ٤٠٤.
(٣) الماوردي: المرجع السابق، ص ١٨٤.
(٤) نفسه.
(٥) الماوردي: نفسه، ص ١٨٣.
صبحي الصالح : النظم الإسلامية، ٣٦٤.

٢- عقد الذمة و شروطه

شرع عقد الذمة بعد فتح مكة، أي في السنة التاسعة للهجرة. و يقوم بذلك العقد ولي أمر المسلمين أو من يقوم مقامه و عقد الذمة ينعقد بإيجابٍ و قبولٍ، شأنه شأن العقود الأخرى، فينعقد باللفظ أو ما يقوم مقامه[١].

و بعقد الذمة و الالتزام بدفع الجزية من قبل أهل الذمة، يقع على المسلمين عبء الدفاع عنهم و المنعة لهم، و الدليل على ذلك ما نجده في الكتب التي عقد بها أمراء الأجناد الصلح مع أهالي البلاد التي فتحوها. فنجد مثلاً في الكتاب الذي صالح به خالد بن الوليد أهل الحيرة *، هذا النص : (عاهدهم على .... و على المنعة، فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم)[٢].

و إذا كانت الجزية في مقابل المنعة، فإن المسلمين رضوا في بعض الوقائع أن يعفوا أهل الذمة من الجزية، حين تعهد إليهم هؤلاء أن ينهضوا معهم بواجب الدفاع و يحملوا عبء القتال، كما حدث حين غزا حبيب بن مسلمة الفهري أهل الجرجومة* في شمال سوريا[٣] و طلبوا الصلح على أن يكونوا أعواناً للمسلمين، و عيوناً و مسالح في جبل اللكام* فقبل منهم ذلك. و أيضاً حين توجه عبد الرحمن بن ربيعة إلى ناحية "الباب" جهة قزوين، عرض عامل الفرس (شهربراز) الصلح على أن يؤدي الجزية ، مخاطباً قائلاً : (إني بازاء عدوٍ كلب و أممٍ مختلفة.. و يدي مع أيديكم ... و جزيتنا إليكم النصر،

---

(١)عبد الكريم زيدان: أحكام الذميين أو المستأمنين، مكتبة القدس بغداد، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م ، ص ٢٤.

* الحيرة مدينة على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف، كانت مسكن ملوك العرب في الجاهلية. ياقوت: معجم البلدان، ج ٢ ص ٣٢٨.

(٢) محمد ضياء الدين الريس: الخراج و النظم المالية للدولة الإسلامية، ص ١٧٤، نقلاً عن الطبري، ج ٤ ص ١٤.

* الجرجومة : مدينة يقال لأهلها الجراجمة، كانت على جبل اللكام بالثقر الشامي .... قرب أنطاكية ، ياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ١٣٢.

(٣) البلاذري، أبو الحسن أحمد بن جابر بن داؤد البغدادي (ت ٢٧٩ هـ): فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م ص ١٦٤.

* جبل اللكام : يطلق هذا الاسم على ما اتصل بأنطاكية و المصيصة من جبل لبنان، ياقوت : ج ٥ ص ١١.

و القيام بما تحبون). فلما رفع عبد الرحمن ذلك إلى سراقة بن عمرو قائد الجند، كتب سراقة بذلك إلى عمر بن الخطاب فأجازه و حسنه[١].

فالجزية إذن كانت بمثابة ضريبة مالية، للمساهمة في واجب الدفاع، نظير ضريبة الدم التي يدفعها المسلم في حومة القتال، للدفاع عن الدولة الإسلامية.

أو رد الفقهاء في شروط عقد الذمة الكثير من الأمور و التفريعات، و مهما يكن من أمر، فإن تلك الشروط – إما أن تكون مشروطة على أهل الذمة من قبل ولي أمر المسلمين، أو قد تكون مشروطة من قبلهم على أنفسهم، و ربما يضيف إليها ولي الأمر، أو يحذف منها ما يراه، و ذلك حسب ما تقتضيه الظروف و الأحوال.

و لذا نجد أن لكل قوم صلحاً مستقلاً، تنفذ شروطه التي تختلف باختلاف الزمن و المكان و العجز. و القدرة و المصلحة و المفسدة[٢]. و من أشهر الشروط الخاصة بأهل الذمة، تلك التي تعرف بالشروط "العمرية" نسبة إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وقد وجدت تلك الشروط القبول من الأئمة، و احتجوا بها و عمل الخلفاء من بعد عمر بموجبها.

و تتضمن تلك الشروط "العمرية" جملة أحكام تتعلق بأهل الذمة[٣]، منها :-

١- أحكام البيع و الكنائس و الصوامع وما يتعلق بها.
٢- أحكام ضيافة المارة.
٣- ما يتعلق بضرر الإسلام و المسلمين.
٤- ما يتعلق بلباسهم و تمييزهم عن المسلمين.
٥- ما يتعلق بإظهار المنكر من أفعالهم و أقوالهم و ما نهوا عنه.
٦- ما يتعلق بمعاملتهم للمسلمين بالشراكة و نحوها.

أما الماوردي[٤] فقد أورد لعقد الذمة شرطين أحدهما مستحقّ و الآخر مستحب، و يندرج تحت كلٍ من الشرطين عدة أمور.

---

(١) محمد ضياء الدين الريس: الخراج و النظم الإسلامية، ص ١٧٦.
(٢) أحمد علي سير المباركي (بالاشتراك مع) عبد الله بن الزايد و عبد الله بن عبد المحسن الطريفي: كتاب السياسة الشرعية، الطبعة الأولى، الرياض ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٥٠.
(٣) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج ٢ ١١٣، ١١٤.
(٤) الماوردي: المرجع السابق، ١٨٤.

فالشرط المستحق: تندرج تحته ستة أمور ملزمة يجب على أهل الذمة تحقيقها، و في حالة عدم التزامهم بها نقضٌ لعهدهم و هي :-

١- ألا يذكروا كتاب الله تعالى بطعنٍ أو تحريف.

٢- ألا يذكروا اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكذيبٍ له أو ازدراء.

٣- ألا يذكروا اسم الإسلام بذمٍ له و لا قدح فيه.

٤- ألا يصيبوا مسلمة بزنى أو باسم نكاح.

٥- ألا يفتنوا مسلماً عن دينه و لا يتعرضوا لماله.

٦- ألا يعينوا أهل الحرب ضد المسلمين.

أما الشرط المستحب:- فيتعلق بأنماط السلوك المختلفة، التي تنص على احترام مشاعر المسلمين، و مما يندرج تحته(١):-

١- أن يميزوا في لباسهم عن المسلمين.

٢- أن تكون منازلهم أقل ارتفاعاً عن منازل المسلمين.

٣- ألا يسمعوا المسلمين أصوات نواقيسهم و تلاوة كتبهم.

٤- عدم المجاهرة بشرب الخمر أو إظهار الصلبان و الخنازير.

٥- إخفاء دفن موتاهم و عدم النواح عليهم.

٦- عدم ركوبهم الخيل، والسماح لهم بركوب البغال و الحمير.

٧- ألا يحدثوا بيعة أو كنيسة، مع جواز بناء ما تهدم من بيعهم و كنائسهم القديمة.

و هذه الأمور المندرجة تحت الشرط المستحب، لا تلزم بعقد أهل الذمة، حتى تشترط فتصير ملزمة، و لا يكون ارتكابها بعد الشرط ناقضاً لعهدهم(٢).

أما ما أورده أبو يعلي في أحكامه السلطانية من شروط لعقد الذمة، فلا تختلف كثيراً عما ذكره الماوردي، فقد ألزم أبو يعلي الذمي: بترك ما فيه ضرر على المسلمين و آحادهم، في مالٍ أو نفسٍ، وكذلك ألزمهم بعدم ذكر الله تعالى و دينه و رسوله بما لا ينبغي، من غضاضةٍ أو نقصٍ. و هذه الشروط يجب عليهم الالتزام بها سواءٌ شرط ذلك عليهم أو لم يشرط(٣).

---

(١)الماوردي: المرجع السابق، ص ١٨٥.

(٢) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (٢٢٤ هـ - ٣١٠ هـ) : تاريخ الأمم و الملوك، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥م ، المجلد الرابع، ١٨٤.
الماوردي: المرجع السابق، ص ١٨٥.

(٣)أبو يعلي المرجع السابق، ص ١٥٨.

أمـا أبـو عبـيد القاسم فـي كـتابه الأمـوال، فقد أورد أن الخليفة عمـر بـن الخطـاب اشـترط علـى بعض أهل الذمـة بجانـب الجـزية، أرزاق المسـلمين و ضـيافتهم و ذلك مـثل شرطه على أنباط الشام، أن يصيب المسلمين من ثمارهم و تبنهم و لا يحملوا[١].

كمـا نجـد أن الخليفة الأمـوي، معاويـة بـن أبـي سـفيان، قـد اشـترط علـيهم بجانـب الجزية النصيحة للمسلمين و إنذارهم بمسير عدوهم من الروم إليهم[٢].

و تلـك الشـروط مشـترطة علـى الذمـة، حيـن صـولحوا علـيها مـع الجـزية، فكـان المسلمون يستجيزون أخذهم بها. إذ كـان يوفـى لهم بعدهم و ذمتهم، و الرفق بهم و حسن معاملتهم. فقد رخص الإمام الأوزاعي* للمسلمين أن يصيبوا اليسير من ثمار أهل الذمة مما اشترط عليهم، و لا يرى زيادةً على ذلك[٣].

و ممـا هو جديرٌ بالملاحظـة، أن العهد الـذي بذلـه المسـلمون لأهل الذمـة، لم يكن قاصـراً علـى أن يكونـا آمنين على أنفسهم و أموالهم، بل كفل لـهم الحرية الدينية، فهم أيضاً آمـنون علـى ديانـتهم و عباداتهم في نفس الوقت، و بذلك تخلصـوا من أعظم ما كان يعانونـه و يـرزحون تحته من اضـطهاد دينـي آنـذاك[٤]، سـواءً لدولـة الروم البيزنطية المسيحية أو دولـة الفرس المجوسية.

---

(١) أبو عبيد القاسم بن سلام: كتاب الأموال ، ١٥٩ ، ١٦٠.

(٢) نفسه، ص ١٦٢.

* الأوزاعي: هو أبو عبيد عبد الرحمن بن عمرو الشامي الدمشقي، كان إمام أهل الشام في عصره بلا منازع، و كان أهل الشام و المغرب على مذهبه قبل انتقالهم إلى مذهب مالك، ولد سنة ٨٨ هـ و مات سنة ١٥٧ هـ في بيروت، و كان نزل بها مرابطاً في آخر عمره. عبد الكريم زيدان : أحكام الذميين، الهامش ص ١٤، نقلاً عن الحديث و المحدثون لمحمد محمد أبو زهو.

(٣) ابو عبيد القاسم بن سلام المرجع السابق، ص ١٦٣

(٤) محمد ضياء الدين الريس: المرجع السابق، ص ١٧٦.

٣- حقوق و واجبات أهل الذمة

ورد كثيرٌ من النصوص الخاصة بحماية أهل الذمة ودفع الظلم عنهم، و رد أي اعتداءٍ يقع عليهم، و توفير الحرية الشخصية لهم، و من ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه و سلم، أنه قال: (من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه إلى يوم القيامة)(١)، كما نجد ذلك أيضاً في عهده صلى الله عليه و سلم لأهل نجران، (.. و لنجران حاشيتها جوار الله و ذمة محمد رسول الله ... و لا يؤخذ منهم رجلٍ بظلم آخر)(٢).

و قد نهج المسلمون هذا النهج النبوي الكريم قولاً و عملاً، فنجد عمر بن الخطاب رضي الله أوصى في آخر حياته بأهل الذمة، فقال: (أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً، و أن يوفى بعهدهم، و أن يقاتل من ورائهم و ألا يكلفوا فوق طاقتهم)(٣)، و كان رضي الله عنه في خلافته يوصي عماله بأهل الذمة و يسأل الوفود عنهم، ليتأكد من حسن معاملتهم(٤).

و الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه يعلن مساواة الذميين في حرمة المال و الدم، فيقول : (إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا و دمائهم كدمائنا)(٥).

فبانعقاد الذمة يصبح أهل الذمة في حماية ورعاية الدولة الإسلامية(٦)، فيجب على ولي أمر المسلمين الكف عنهم و حمايتهم، عملاً بوصية النبي عليه أفضل الصلاة و أتم التسليم، فقد كان آخر ما تكلم به: (احفظوني في ذمتي)(٧). و لأهل الذمة نصيب في

---

(١) يحي ابن آدم: كتاب الخراج، طبعة ١٣٠٢ هـ دار المعرفة، بيروت، ص ٧٥.
(٢) أبو يوسف :كتاب الخراج، ص ٧٢.
(٣) يحي بن آدم: المرجع السابق ، ص ٧٥.
(٤) الطبري : تاريخ الأمم و الملوك، ج ٤ ص ٢١٨.
(٥) الكاساني : بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الطبعة الأولى ١٣٢٧ هـ - ١٣٢ هـ، ج ٧ ص ١١١.
(٦) فتحية عبد الفتاح النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٩٤م، ص ١٦٨.
(٧) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ١٨٢، نقلا عن البخاري، ١٣/ ١٢٩.

وصايا الخلفاء الراشدين من بعده.

و لأهل الذمة كثيرٌ من الحقوق التي تمتعوا بها و كفلتها لهم الدولة الإسلامية ، و من تلك الحقوق، الحق في اختيار عقيدتهم الدينية، و عدم إكراههم بالدخول في الإسلام، و الإبقاء على كنائسهم في غير جزيرة العرب، فلا يهدم منها شئ مما وجد قديماً و لا يجوز أن يحدثوا جديداً، و لهم الحق في إصلاحها، كما لهم الحق في إقامة عبادتهم داخلها، وممارسة علاقاتهم الشخصية من زواج و طلاقٍ، و فق معتقدهم الذي يعتقدونه[١].

كما يجب على ولي أمر المسلمين، الدفاع عنهم و حمايتهم من أي اعتداءٍ، سواءً كان ذلك الاعتداء من مسلمين أو من أهل حربٍ أو أهل ذمة، فنجد في سنة المصطفى صلى الله عليه و سلم، أشد التحذير من قتل الذمي، حيث قال صلى الله عليه وسلم: (من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة، و أن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً)[٢].

و مثلما رضي الإسلام بإقامتهم مع المسلمين، رضي بالتعامل معهم، في شتى أنواع التعامل المشروع من بيع و شراءٍ و رهنٍ، و غير ذلك من التصرفات و المعاملات الجائزة شرعاً، و كل ذلك يتم في إطار المعاملات الحسنة التي تقتضي البر بهم ، و الإحسان إليهم، و زيارتهم في المناسبات، و عيادة مرضاهم، و لنا في رسولنا الكريم خير أسوة، فقد زار جاره اليهودي الذي كان مريضاً، ودعاه إلى الإسلام ، فاستجاب له و أسلم[٣].

---

(١)أحمد علي سير المباركي و آخرين: كتاب السياسة الشرعية، ص ٥١.

(٢) البخاري، محمد بن اسماعيل : صحيح البخاري، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ هـ ج ٤ ص ٢٥١٦.

(٣) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج ١ ص ١٥٨.

كما كفل الإسلام لهم حق الرعاية الاجتماعية، مثلما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع اليهودي المسن، حيث أمر أن تصرف له حاجته من بيت المال، بعد أن عمي بصره و كبر سنه، و قال: (فو الله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم)[١].

كما لهم من الحقوق ما و قع عليه الصلح، فليس لأحد نقضه، و للمسلمين الوفاء لهم به.

و بكف المسلمين عنهم، و حمايتهم لهم، يكونوا بالكف آمنين و بالحماية محروسين، فالجزية التي وضعت على رقابهم عاصمة لهم، كما إن بقائهم في دار الإسلام مصلحة لهم، و ذلك من رجاء إسلامهم، إذا شاهدوا أعلام الإسلام و براهينه أو بلغتهم أخباره، فلابد أن يدخل في الإسلام بعضهم[٢].

و قد فتح المسلمون الباب أمام الذميين للمشاركة في إدارة الدولة، إلا إن هناك بعض الوظائف في الدولة الإسلامية لا يكلف بها الذمي، و ذلك لأن طبيعتها تقتضي ألا يتولاها إلا المسلم، كالخلافة أي الإمامة و الإمارة على الجهاد[٣].

و حجب مثل هذه الوظائف القليلة ألا يثير استغراباً أو دهشة، و ذلك لأن الوظيفة في نظر الشريعة الإسلامية تكليفٌ لا حق، و للدولة أن تشترط بعض الشروط التي تراها ضرورية فيمن تكلفه ببعض الوظائف المعينة، كما أن هذه الوظائف القليلة التي لا يكلف بها الذمي تقوم على أساس العقيدة الإسلامية أو ما يتصل بها، و يظهر فيها عنصر التدين بارزاً، فكان قصرها على المسلم سائغاً و مقبولاً، و ذلك لأن الذمي لا يشارك المسلم في أمور و لا فيما يتصل بالعقيدة الإسلامية أو يقوم عليه، أو فيما عدا تلك

(١) أبو يوسف : الخراج، ص ١٢٦.
(٢) ابن قيم الجوزية: مرجع سابق، ج ١ ص ٣٠.
(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٣٣، أبو يعلى : الأحكام السلطانية، ص ٣.
عبد الكريم زيدان : أحكام الذميين، ص ٧١.

الوظائف القليلة، التي يشترط فيمن يتولاها أن يكون مسلماً، يجوز إشراك الذميين في تحمل أعباء الدولة و إسناد الوظائف العامة إليهم[1]. و قد دلّ على هذا الكتاب و السنة، فنجد في الكتاب قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ . . .)[2]. و قد نزلت هذه الآية الكريمة فيمن كان لهم عهدٌ و ذمةٌ من رسول الله صلى الله عليه و سلم[3]. و هي لم تنه المسلمين من اتخاذ بطانة من الذميين بصورةٍ مطلقة، و إنما علقت النهي بالقيود الواردة فيها، أي أن النهي منصبٌ على من ظهرت عداوتهم للمسلمين، فهؤلاء لا يجوز اتخاذهم بطانة. و معنى هذا أن الذميين الذين لا تعرف لهم عداوةٌ للمسلمين يجوز اتخذهم بطانة يستودعونهم الأسرار و يستعينون برأيهم في شئون الدولة المهمة[4]. و هذا يعني جواز إسناد الوظائف العامة إليهم، و هي بلا شك دون البطانة في المركز و الأهمية، و في السيرة النبوية ما يؤيد ذلك، حيث أن النبي صلى الله عليه و سلم جعل فداء أسر معركة بدر، أن يعلم عشرة من غلمان الأنصار الكتابة و يخلي سبيله[5]. فهذا يفيد أن النبي صلى الله عليه و سلم استخدم غير المسلمين في شأن من شئون الدولة الإسلامية وهو تعليم بعض المواطنين المسلمين الكتابة، كما نجد أيضاً في السيرة النبوية، أن النبي صلى الله عليه وسلم لما توجه إلى مكة سنة ستة للهجرة و وصل إلى ذي الحليفة* بعث عيناً من خزاعة يخبره عن قريش و كان هذا العين كافرا[6]، و مع هذا أسند إليه هذه المهمة الخطيرة، و لا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم، أمنه و وثق به و اطمأن إليه، و في هذا دليلٌ على جواز إسناد الوظائف العامة للذميين، ما داموا أهلاً لها من حيث الكفاءة و الثقة و الأمانة.

(١) عبد الكريم زيدان: المرجع السابق، ص ٧٩.
(٢) سورة آل عمران : الآية ١١٨.
(٣) الطبري : تاريخ الأمم و الملوك، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٧٣هـ، ج ٤، ص ٦٣، ٦٤.
(٤) محمد رشيد رضا : تفسير المنار، مطبعة المنار بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٣ هـ، ج ٤، ص ١٨.
(٥) المقريزي: امتاع الأسماع بما للرسول من أبناء و الأموال و الحفدة و المتاع، مطبعة لجنة التأليف و النشر بالقاهرة، سنة ١٩٤١م، ج ١، ص ٣٩،٤٠.
* ذو الحليفة قرية بينها و بين المدينة ستة أميال أو سبعة، و منها ميقات أهل المدين. ياقوت: ج ٢ ص ١٩٥.
(٦) عبد الكريم زيدان : مرجع سابق، ص ٨٠، نقلاً عن: ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هده خير العباد، مطبعة السنة المحمدية، سنة ١٩٣٥، ج ٤ ص ٣١٢.

و في ظل التسامح الإسلامي الكريم، صرح الفقهاء بجواز تقليد الذمي وزارة التنفيذ، ووزير التنفيذ يبلغ أوامر الإمام و يقوم بتنفيذها و يمضي ما يصدر عنه من أحكام(١)، كما نص الفقهاء أيضاً على جواز وظائف أخرى كجباية الجزية و الخراج(٢).

و في واقع الأمر نجد أن المسلمين في مختلف العصور يشركون الذميين في أعمال الدولة. و الأمثلة على ذلك كثيرة، فالخليفة الثاني عمر بن الخطاب عندما جاءه سبى قيسارية* جعل بعضهم في الكتابة و أعمال المسلمين(٣). و كما نجد أن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك قد عهد بالإشراف و النفقة على بناء داره و مسجد الجماعة بالرملة* بفلسطين إلى كاتبٍ نصراني، يقال له البطريق بن النقا(٤).

و لما فتح المسلمون مصر أبقوا على العمال البيزنطيين، و كان منهم منياس الذي كان والياً للإمبراطور "هرقل" على المنطقة الشمالية من مصر.

و في زمن الأمويين نجد " اثناسيوس" الذي شغل بعض المناصب الحكومية الهامة في دواوين الإسكندرية(٥)، و قلما خلا ديوانٌ من دواوين بني أمية من أهل

---

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية، ص ٣٦.
(١) نفسه، ص ٢٤٧، أبو يعلى: الأحكام السلطانية، ص ١٢٤.
* قيسارية : بلد على ساحل الشام، تعد في أعمال فلسطين بينها و بين طبرية ثلاثة أيام، و كانت قديماً من أعيان أمهات المدن، واسعة الرقعة، طيبة البقعة، كثيرة الخير و الأهل، و توجد مدينة كبيرة في بلاد الروم بهذا الاسم. ياقوت : ج ٤ ص ٤٢١.
(٣) البلاذري : فتوح البلدان، ص ١٤٧.
* الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين و كانت قصبتها، قد خربت الآن، وكانت رباطا للمسلمين، ياقوت : ج ٣ ص ٦٩.
(٤) البلاذري: المرجع السابق، ص ١٤٩. أ. س. تريتون: أهل الذمة في الإسلام ترجمة حسن حبش، الطبعة الثانية، الدقي – القاهرة ١٩٧٦م، ص ١٨.
(٥) تريتون: المرجع السابق، ص ١٥.

الذمة،حتى أن مؤسس الدولة معاوية بن أبي سفيان كان له كاتبٌ نصرانيٌ يدعى "سرجون"*.

و في زمن العباسيين عين أبو جعفر المنصور يهودياً اسمه موسى في جباية الخراج، كما عين الخليفة المأمون " بكام " أحد وجهاء بورة* من مدن مصر رئيساً لبلدته و إقليمها(١)

فكل الأمثلة السابقة توضح ما تمتع به أهل الذمة من حقوق، كما وردت كثيرٌ من النصوص الخاصة بحمايتهم و دفع الظلم عنهم، ورد أي اعتداء يقع عليهم، و توفير الحرية الشخصية لهم.

و الحق أن الفقهاء في مختلف المذاهب صرحوا بأن على المسلمين دفع الظلم عن أهل الذمة و المحافظة عليهم، فقد صاروا من أهل دار الإسلام، و لم يكتف الفقهاء بالقول في حق أهل الذمة بل نجدهم يخاطبون الحكام بشأنهم و يوصون بهم خيراً و من ذلك ما كتبه الإمام أبو يوسف إلى الخليفة العباسي هارون الرشيد ، يوصيه برعايتهم و تفقد أحوالهم حتى لا يظلموا و لا يؤذوا و لا يكلفوا فوق طاقتهم(٢).

و قد أنكر الإمام الأوزاعي على الوالي العباسي صالح بن علي بن عبد الله بن عباس عندما أجلى قوماً من أهل الذمة من جبل لبنان، حيث يقول في رسالته له : (...فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم و أموالهم، و حكم الله تعالى :

---

* سرجون الرومي: كان كاتباً لمعاوية و يزيد ابنه و مروان بن عبد الحكم و عبد الملك بن مروان.. إلى ان حول الحساب من الرومية إلى العربي. الماوردي: الأحكا م، (الهامش) ص ٢٦٥ نقلاً عن العقد الفريد، ج ٤ ص ١٦٩ ، ١٧٠.

* بورة : مدينة على ساحل بحر مصر قرب دمياط تنسب إليها العمائم البورية و السمك البوري.
ياقوت: ج ١ ص ٥٠٦.

(١) تريتون: مرجع سابق، ص ١٩.

(٢) يحي بن آدم :

(﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾)[١]. ثم يقول في رسالته: فإنهم ليسوا بعبيدٍ حتى تكون من تحويلهم من بلدٍ إلى بلدٍ في سعةٍ، و لكنهم أحرارٌ أهل ذمة[٢]. و بذلك ضرب لنا الأوزاعي المثل الرائع في دفاع الفقهاء عن أهل الذمة بالرغم من اختلافهم معهم في الدين.

كما أن التزام الدولة الإسلامية لا يقف عند حمايتهم من الاعتداء الداخلي، بل يتناول حمايتهم ضد أي اعتداءٍ خارجي قد يتعرضون لهن و لهذا رد أبو عبيدة بن الجراح ما أخذه من جزيةٍ من أهل بعض منطق الشام لمّا سمع بتجمع الروم و رأى عدم قدرته على الدفاع عنهم[٣]. و للذميين من الحقوق، حق التنقل في دار الإسلام و الإقامة حيثما شاءوا، و ارتياد الأماكن العامة في الدولة الإسلامية. و لا نجد في ذلك إلا استثناءات قليلةٌ، و ذلك أن الفقهاء قالوا أن بلاد الإسلام ثلاثة أقسام: حرمٌ و حجازٌ و ما عداهما[٤]. و للقسمين الأولين أحكامٌ خاصة كالتالي:

أولاً: الحرم و هو مكة و ما طاف بها من نصب حرمها. و ليس لغير المسلم أن يدخل الحرم مقيماً و لا ماراً به، و هذا هو مذهب الشافعية و الحنابلة، أما أبو حنيفة فقد أجاز لغير المسلم دخول الحجاز كله و لكن ليس له الإقامة فيه.

و حجة الأولين أن القرآن الكريم نهى غير المسلمين عن قربان المسجد الحرام، و المقصود به الحرم كله لا المسجد الحرام فقط.[٥]

ثانيا: الحجاز هو مكة و المدينة واليمامة و قراها كالطائف و خيبر[٦]، و ما سوى

---

(١) سورة النجم، آية ٣٨.
(٢) البلاذري : مرجع سابق، ص ٧٥.
(٣) أبو يوسف : مرجع سابق، ص ١٣٩.
(٤) الماورد: مرجع سابق، ص ٢٠١، أبو يعلى : مرجع سابق، ص ١٧١.
(٥) الماوردي: نفسه ، ص ٢١٥ ، ٢١٦، أبو يعلى نفسه، ص ١٧٩.
(٦) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد اليمني الصنعاني(ت ١٢٥٥ هـ): نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخبار : المطبعة العثمانية بمصر ، سنة ١٣٥٧ هـ ج ٨ ص ٦٥.

الحرم، و لا يجوز أن يستوطنه الذميون، و استدل من قال بذلك بما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أنه قال : (لا يجتمع دينان في جزيرة العرب)[١]. و المقصود بجزيرة العرب الحجاز، فيمنع غير المسلم بالتوطن فيه[٢]. إلا أن الذميين دخلوا الحجاز للتجارة، فقد كان النصارى في زمن عمر بن الخطاب يتجرون في المدينة، و لكن لا يسمح لهم بالإقامة أكثر من ثلاثة أيام[٣] . و إن اقتضت المصلحة تمديد الفترة إلى أكثر من ثلاثة أيام فهذا أمرٌ اجتهادي، فلِوَليِّ أمر المسلمين ما يراه من تمديدٍ، إذا و جدت حاجةً كبيع بضاعةٍ أو وجهٍ من وجوه المصلحة[٤].

و للذمي حرية الاعتقاد، فلا يكره على اعتناق الإسلام، و ذلك لأن عقد الذمة يتضمن إقرار الذمي على عقيدته و عدم التعرض له بسبب ديانته، و من لوازم الإقرار على العقيدة السماح لهم بإنشاء معابدهم، إلا إذا ما منع ذلك، و لا يتعرضون لكنائسهم القديمة المفتوحة في الأمصار عنوةً بهدمٍ أو نحوه، و ذلك لأن الصحابة فتحوا كثيراً من الأمصار عنوةً فلم يهدموا شيئاً من الكنائس. أما منعهم من إحداث الكنائس في أرض الحجاز، فقد ذهب إليه جميع الفقهاء، و ذلك لأن الحجاز لا يتوطن فيه أهل الذمة[٥].

كما يحق للذميين إقامة شعائرهم الدينية داخل معابدهم، و يمنعون من إظهارها في خارجها في أمصار المسلمين. أما القرى فلا يمنعون من إظهار شعائرهم فيها[٦].

و لكن مما هو جدير بالملاحظة و الذكر، أن القول بمنع الذميين من إظهار شعائرهم الدينية خارج كنائسهم في أمصار المسلمين، يتوقف على مراعاة المصلحة العامة للدولة الإسلامية آنذاك، لئلا يحدث من إظهار شعائرهم في أمصار المسلمين من الفتنة و الاضطراب. فليس المنع إذن منصباً على ذات الشعائر الدينية، و لذا لم يمنع أهل الذمة من إظهار شعائرهم في القرى و المواضع التي ليست من أمصار المسلمين، أو في

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ)، المطبعة اليمنية بمصر، الطبعة الأولى، سنة ١٣١٣ هـ، ج ٦ ص ٢٧٥.
(٢) الشوكاني: المرجع السابق، ج ٨ ص ٦٥.
(٣) الماوردي: مرجع سابق، ص ٢١٦.
(٤) عبد الكريم زيدان: مرجع سابق، ص ٩٣.
(٥) عبد الكريم زيدان: مرجع سابق، ص ٩٨ ، ٩٩.
(٦) الكاساني : بدائع الصنائع، ج ٧ ص ١٣٣، السرخس: شرح السير الكبير، الطبعة الأولى، حيدر أباد – الهند سنة ١٣٣٥ هـ، ج ٣ ص ٢٥١ ، ٢٥٢.

قرى أهل الذمة أنفسهم، و لو كان المنع لذات الشعائر لمنعت في كل مكان(١). و يعزز هذا الرأي ما جاء في عهد خالد بن الوليد لأهل عانات* عند مسيرة الروم من العراق، حيث جاء فيه : (... و لهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعةٍ شاءوا من ليلٍ أو نهار، إلا في أوقات الصلوات، و أن يخرجوا الصلبان في أيام أعيادهم)(٢) كما أعطى خالد هذا العهد لأهل قرقيسياء*(٣).

كما أن عمرو بن العاص لما فتح مصر أطلق الحرية الدينية للأقباط و رد البطريرك "بنيامين" إلى كرسيه بعد تغيبه عنه ما يقرب عن ثلاث عشرة سنة، بل أمر باستقباله بكل حفاوةٍ و تكريم عندما سار إلى الإسكندرية(٤). فهذا و غيره يدل على مدى تسامح المسلمين مع أهل الذمة و إعطائهم الحرية الدينية التي تستلزم السماح لهم بإقامة شعائرهم الدينية، مما يتفق و إقرارهم على عقيدتهم.

و مما تمتع به الذمي في ظل الدولة الإسلامية ، كفالة الدولة لـه، عند الحاجة و العجز، فقد تصدق رسولنا الكريم بصدقةٍ على أهل بيتٍ من اليهود فهي تجرى عليهم(٥). كما بعث صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة مالاً لما قحطوا، ليوزع على فقرائهم(٦)، و أهل مكة كانوا آنذاك مشركين حربيين و لم يكونوا ذميين، و أهل الذمة أولى بالرعاية من الحربيين، و ذلك لأن أهل الذمة من رعايا الدولة الإسلامية.

وعلى هذا الهدى النبوي الشريف سار الخلفاء الراشدون، و ولاة الأمور و قادة المسلمين، فأحاطوا الذميين بالرعاية و العناية وكفلوا لهم حقهم في بيت المال عند الحاجة و العجز.

---

(١) عبد الكريم زيدان: مرجع سابق، ص ١٠٠.
* عانات : بلد مشهور بين الرقة وهيت، يعد في أعمال الجزيرة، ونسبت إليه العرب الخمر. ياقوت: ج ٤ ص ٧٢.
(٢) أبو يوسف: الخراج، ص ١٤٦.
* قرقيسياء : بلد على نهر الخابور في الفرات فهي مثلث بين الخابور و الفرات. ياقوت : ج ٤ ص ٣٢٨.
(٣) أبو يوسف: مرجع سابق، ص ١٤٧.
(٤) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ١ ص ٣١٢ ، ٣١٣.
(٥) أبو عبيد القاسم: مرجع سابق، ص ٦٠٥.
(٦) السرخسي: شرح السير الكبير، ج ١ ص ١٤٤.

و نجد في صلح خالد بن الوليد لأهل الحيرة* ما يأتي : (.. و جعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر، و صار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته و عيل من بيت مال المسلمين، ما أقام بدار الهجرة والإسلام)[١].

و الخليفة عمر بن الخطاب عند مقدمه الجابية* من أرض دمشق، مرَّ بقوم مجزومين من النصارى، فأمر أن يعطوا من الصدقات و أن يجرى عليهم القوت[٢]. و يروي لنا أبو عبيد[٣]، أن عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي، كتب إلى عامله في البصرة : (أما بعد .. و لنظر قبلك من أهل الذمة من قد كبرت سنه ، و ضعفت قوته و ولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه ..).

و مما سبق يمكننا القول أن الدولة الإسلامية ملزمةٌ بإعالة المحتاجين من أهل الذمة، و هذا الالتزام يعتبر صورةً رائعة من صور الضمان الاجتماعي الذي طبقته الدولة دون التفاتٍ إلى دين الذمي و عقيدته[٤].

* الحيرة : سبق تعريفها ص ١٢ من هذا البحث.
(١) أبو يوسف : المرجع السابق، ص ١٤٤.
* الجابية : من اعمال دمشق ثم من عمل الجيدور من ناحية الجولان قرب مرج الصفر في شمال حوران. ياقوت: ج ٢ ص ٩١.
(٢) البلاذري: مرجع سابق ص، ١٣٥.
(٣) أبو عبيد القاسم بن سلام: مرجع سابق، ص ٥٠.
(٤) عبد الكريم زيدان: مرجع سابق، ص ١٠٥.

الفصل الثاني

أهل الذمة في صدر الإسلام

١ - أهل الذمة في العهد النبوي

٢ - أهل الذمة في العهد الراشدي

٣ - أهل الذمـــة في العهد الأموي

١- أهل الذمة في العهد النبوي

بعد أن تم للنبي صلى الله عليه و سلم وضع اللبنة الأولى لدولة الإسلام بالمدينة، و نظم العلاقة بين مجتمعها من مسلمين و يهود و غيرهم، و ذلك لتامين الأوضاع الداخلية في المدينة، ليتفرغ لتبليغ الدعوة ونشرها لمن لم تبلغه. عقد النبي صلى الله عليه وسلم رايات الجهاد لأصحابه و قادته و أوصاهم بتعاليم الإسلام و مجاهدة من يقف في سبيل الدعوة و تبليغها.

فكان قادة جيوش الفتح عندما يغزون بلداً أو إقليماً، يطلبون من أهله اعتناق الإسلام(١)، فمن استجاب لذلك صار من المسلمين و طبقت عليه أحكامه، و من امتنع فرضت عليه الجزية، فإن قبلها و أقر بها صار من أهل الذمة، و إن رفضها و لم يلتزم بها فلا محالة من محاربته و قتاله.

و هذا الامتياز لا يتمتع به إلا أهل الملل المعترف بها، و هم أهل الكتاب من يهودٍ و نصارى، كما ألحق بهم المجوس و السامرة و الصابئة.

و كانت أول جزية أخذت في الإسلام من نصارى نجران(٢)، الذين صالح وفدهم النبي صلى الله عليه وسلم عليها و انصرفوا إلى قومهم. كما قبل النبي الجزية من أهل البحرين و كانوا مجوساً(٣).

و قد أمن الرسول صلى الله عليه و سلم أهل أيلة* و أميرهم يوحنة بن رؤبة و من كان معهم عند قبولهم بدفع الجزية(٤).

---

(١) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج ١ ص ٢٠، علي حسني الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٦٠م، ص ٦٧.
(٢) أبو عبيد: الأموال، ص ٣٢.
(٣) نفسه، ص ٣٨، ابن قيم الجوزية: المصدر السابق، ج ١ ص ٣٩.
* أيلة: ميناء قديمة على البحر الأحمر تقع شمال العقبة، كانت ملتقى القوافل بين مصر و أواسط بلاد العرب. أبو عبيد القاسم: مرجع سابق، ص ٢٠٨.
(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٧١، أبو عبيد القاسم: مرجع سابق، ص ٢٠٨.

و قد كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتب الأمان لكل من قبل الجزية و ما اشترط عليه من شروط، فصالح أهل أجرباء* و أذرح*، و صالح " أكيدر" صاحب دومة الجندل* و حقن دمه[١].

و رغم أن النبي صلى الله عليه و سلم، قد هاون اليهود في المدينة، و أحسن معاملتهم و اعتبرهم رعايا في المجتمع الإسلامي ، إلا أنهم تآمروا ضد الإسلام و المسلمين منحازين لقريش، مما أدى إلى طردهم إلى الواحات الشمالية[٢]،و لاستمرارهم في التآمر أرسل حملة كان من نتائجها طلبهم المهادنة.

و من المعلوم أن الإسلام أتاح لمن بقي من اليهود على دينه كامل الحرية في عقيدته و نفسه و ماله و عرضه، و لكنهم رغم كل ذلك نجدهم يشكلون طائفة مشاكسة[٣] في أرض الإسلام.

أما النصارى فقد أحسن الرسول صلى الله عليه و سلم معاملتهم، فقد أوصى بالقبط خيراً.

أما الصابئة و المجوس فقد عوملوا على أنهم من أهل الذمة، رغم أنهم لم يكونوا أهل كتاب فقد صالح النبي صلى الله عليه و سلم مجوس هجر*، و أخذ منهم الجزية، و على هذا النهج سار الخلفاء من بعده[٤].

---

* أجرباء: من أعمال عمان من أرض الشام قرب جبل السراة من ناحية الحجاز، ياقوت : ج ٢ ص ١١٨.
* أذرخ : في أطراف الشام من أعمال الشراة، ثم من نواحي البلقاء. ياقوت: ج ١ ص ١٢٩.
* دومة الجندل: تقع على سبع مراحل من دمشق بينها و بين المدينة المنورة، و ملكها أكيدر بن عبد الملك الكندي ... أفتتحها خالد بن الوليد سنة تسع للهجرة، ثم أن النبي صلى الله عليه و سلم صالح أكيدر و أمنه و قرر عليه و على أهله الجزية و كان نصرانياً : أبو عبيد، الأموال ص ٢٠٨.

(١) الطبري: تاريخ الأمم و الملوك، ج ٢ ص ١٨٥.
(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٠.
(٣) محمود اسماعيل : تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٦٧.
* هجر: مدينة و هي قاعدة البحرين. ياقوت: ج ٥ ص ٣٩٣.
(٤) أبو عبيد القاسم: المرجع السابق، ص ٣٧، البلاذري : مرجع سابق، ص ٩١، ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ص ١٩، أبو يوسف : الخراج، ص ١٢٩، ١٣٠.

و قد شارك المجوس و الصابئة في المجتمع الإسلامي و تمتعوا بما تمتع به غيرهم من أهل الذمة، باعتبارهم رعايا و معاهدين(١).

وقد استدل الإمام الشافعي بجواز الاستعانة بالمشركين على قتال المشركين، إذا خرجوا طوعاً، بناءً على استعانة الرسول صلى الله عليه و سلم بعددٍ من يهود قينقاع في غزوة خيبر في السنة السابعة للهجرة(٢)، و استعانته بصفوان بن أمية* و هو مشرك في غزوة حنين في السنة الثامنة للهجرة(٣).

و يمكننا القول، إن المجتمع الإسلامي، في عهد الرسول صلى الله عليه و سلم، بعناصره المختلفة و طبقاته و طوائفه و ملله و نحله، قد أسهم إسهاما واضحاً في تشييد صرح الحضارة الإسلامية المزدهرة، بمختلف جوانبها و ذلك بفضل الإسلام و عدالته التي كفلت حق المواطنة للجميع في دار الإسلام(٤).

---

(١) محمود اسماعيل: المرجع السابق، ص ١٧١.
(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٦.
* صفوان بن أمية: من أشراف قريش في الجاهلية و الإسلام، أسلم بعد الفتح، و كان من المؤلفة قلوبه، شهد اليرموك، و مات بمكة عام ٤١ هـ ، و له في كتب الحديث ثلاثة عشر حديثا. الماوردي: الأحكام، ص ٢٩٧ نقلاً عن : الأعلام، ج ٣ ص ٢٠٥.
(٣) البلاذري: المرجع السابق، ص ٥٣.
(٤) محمود اسماعيل: المرجع السابق، ص ١٧١.

٢- أهل الذمة في العهد الراشدي

اتسعت الدولة الإسلامية في العهد الراشدي، و ذلك لفتح الأمصار لنشر الدعوة الإسلامية، و لكن مما يلفت النظر في عملية الفتوح الإسلامية، ذلك الترحيب الواضح من أهل الديار المفتوحة بالمسلمين.

فمما سهل فتح ولايات الدولة الرومانية الشرقية، بجانب ما بين العرب و سكان تلك الولايات من صلاتٍ و تقاربٍ في اللغة و الجنس و الصلات التجارية، ذلك النفور بين الدولة الرومانية و سكان ولاياتهم بسبب الانقسامات الدينية و المذهبية و زيادة الضرائب التي أرهقت السكان[١]. فكان الترحيب بالفاتح الجديد للتخلص من الحكم الروماني، واستبداد الكنيسة، هذا فضلاً عما سمعوا به من عدالة وسماحة الإسلام.

أما دولة الفرس، فقد كره أهلها استبداد حكامها، و ما وقع من اضطهاد ديني على الأحزاب المخالفة من يهودٍ و مسيحيين و صابئةٍ وبوذيين و مانويين[٢]، و كان نتيجة ذلك الكره الانصراف عن نصرة حكامها و الترحيب بالعرب المسلمين. أملاً في التخلص من ذلك الظلم و الاضطهاد.

و قد كان لذلك الترحيب من أهل الديار المفتوحة بالمسلمين، أثره الواضح في نشر الإسلام، حيث دخلت في الإسلام جموعٌ هائلة منهم، و من بقي منهم بدينهم عومل بتسامح عظيم ، و كانت كتب الصلح صورةٌ ناصعة لذلك التسامح[٣] . فقد أوضحت و بينت العلاقة بين الدولة الإسلامية و رعاياها من أهل الذمة.

ففي عهد أبي بكر الصديق الخليفة الأول، تمكن خالد بن الوليد من فتح الحيرة صلحاً و عقد مع أهلها – الذين كانوا أخلاطاً من قبائل العرب و غيرهم – الذمة، و أخذ منهم الجزية و بعثها إلى أبي بكر الصديق بالمدينة، فقبلها[٤].

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٤٣، حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ١ ص ١٧٦.
(٢) حسن ابراهيم: المرجع السابق، ص ١٧٨.
(٣) علي حسني الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، ص ٩٨.
(٤) أبو عبيد القاسم: الأموال، ص ٣٣.

كما صالح خالد بن الوليد سنة اثنتي عشرة من الهجرة بعض قرى السواد* و قبل منهم الجزية و كتب لهم كتاباً، كما كتب إلى مراذبة*فارس يدعوهم إلى الإسلام أو دفع الجزية(١).

أما في عهد عمر الخليفة الثاني، فقد اتسعت الدولة، و كان قادة جيوش الفتح الإسلامي لا يكرهون أحداً من أهل الملل الأخرى، للدخول في الإسلام، بل كانوا يعطونهم الأمان متي ما قبلوا و التزموا بالجزية. فقد تم الصلح مع أهل إيلياء* سنة خمس عشرة من الهجرة بالجباية، و وقع معهم الأمان على أن يعطوا الجزية و بين لهم مالهم و ما إليهم من حقوق و واجبات(٢). كما كتب عمر بن الخطاب كتب الأمان و الصلح لأهل " لد "* و من دخل معهم من أهل فلسطين، على أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام، كما صالح أهل الرها* و حران* و أرمينيا* و الرقة* و نصيبين*، فكانت الجزيرة من أسهل البلدان فتحاً و أيسرها أمراً(٣).

كما أن صاحب الإسكندرية، أرسل إلى القائد عمرو بن العاص: (.. أني قد كنت أخرج الجزية إلى من هو أبغض إليَ منكم معشر العرب، لفارس و الروم، فإن أحببت أن أعطيك الجزية، على أن ترد إليّ ما أصبتم من سبايا فعلت. فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، بذلك فكان رده : (.. أعرض على صاحب الإسكندرية على أن يعطيك الجزية، على أن تخيروا من في أيديكم من سبيهم بين الإسلام و بين دين قومه، فمن اختار

* السواد : حد السواد من لدن تخوم الموصل، ماراً مع الماء إلى ساحل البحر، ببلاد عبادان، من شرقي دجلة، هذا طوله أما عرضه فحده منقطع الجبل من أرض حلوان إلى منتهى طرف القادسية المتصل بالعزيبة من أرض العرب. ابو عبيد القاسم: الأموال، ص ٧٨.

* المراذبة: هم طبقة النبلاء من الفرس، حكام الولايات، صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص ٣١.

(١) الطبري : تاريخ الأمم و الملوك، ج ٢ ص ٣٠٧،

* إيلياء : اسم مدينة بيت المقدس، قيل معناه بيت الله، ياقوت: ج ١ ص ٢٩٣.

(٢) الطبري: المرجع السابق، ص ٤٤٩.

* لد: قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين، ببابها يدرك عيسى عليه السلام الدجال فيقتله. ياقوت: ج ٥ ص ١٥.

* الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل و الشام. ياقوت : ج ٣ ص ١٠٦.

* حران: قصبة ديار مضر .. بينها و بين الرها يوم و بين الرقة يومان و هي على طريق الموصل و الشام و الروم. ياقوت: ج ٢ ص ٢٣٥.

* أرمينيا: اسم لصقع واسع جهة الشمال، و قيل هما أرمينيا الكبرى و الصغرى ، وقيل ثلاث ارمينيات و قيل أربع. ياقوت: ج ١ ص ١٦٠.

* الرقة: مدينة مشهورة على الفرات، بينها و بين حران ثلاثة أيام. ياقوت: ج ٣ ص ٥٩.

* نصيبين: من بلاد الجزيرة العربية على جادة القوافل من الموصل إلى الشام بينها و بين الموصل ستة أيام. ياقوت: ج ٥ ص ٢٨٨.

(٣) الطبري: المصدر السابق ، ص ٤٨٤.

منهم الإسلام فهو من المسلمين، له مالهم و عليه ما عليهم، و من اختار دين قومه و ضع عليه من الجزية ما على أهل دينه، فأما ما تفرق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة و المدينة و اليمن فإنا لا نقدر على ردهم، و لا نحب أن نصالحه على أمرٍ لا نفي له به)[١]، و قد قبل صاحب الإسكندرية بذلك، فكتب له عمرو بن العاص كتاباً بالأمان لأهل مصر.

و لا يمكننا نورد هنا كل ما كتب من أمانٍ لأهل الذمة، و إنما في المثال السابق ما يوضح ما اتسم به الإسلام من صدقٍ في التعامل، و عدلٍ بين الناس، و احترام للعهود و المواثيق.

و مما هو جدير بالذكر أن هناك بعض الشروط التي يمكن أن يمليها أهل الذمة على المسلمين، و قد تجد تلك الشروط الموافقة من المسلمين أحياناً، مثل ما طلبه أهل الصامغان* و أهل خراسان من صلح و و موادعةٍ من غير نصرٍ و لا معونة[٢].

و كان الخليفة عمر بن الخطاب يوصي قادة الفتح بالرفق بالذمة و الوفاء لهم بعهودهم و الكف عن ظلمهم، و عدم أكل أموالهم إلا بحلها[٣]، و أوضح الأدلة على ذلك، و صيته لمن يلي الأمر من بعده بهم أن يوفى لهم بعهدهم[٤].

و قد انعكست تلك المعاملة الحسنة بمثلها في موقف أهل الكتاب من المسلمين ، و تقديم يد العون لهم، و ذلك كموقف أقباط مصر من حملة عمرو بن العاص.

و تبلغ قمة التسامح مع أهل الذمة ، فيما أصدره عمر بن الخطاب إلى ولاته في الأقاليم بتخفيف الجزية عمن لم يطق، و إعانة من عجز، و ما فرضه لأهل الذمة من المعدمين و المرضى و المسنين من بيت مال المسلمين[٥].

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم و الملوك، ج ٢ ص ٥١٣.
* الصامغان: كورة من كور الجبل في حدود طبرستان، ياقوت: ج ٣ ص ٣٩٠.
(٢) الطبري: المرجع السابق، ج ٢ ص ٥٣٤ ، ٥٤١.
(٣) أبو يوسف: الخراج، ص ١٢٣، حسن علي حسن و التوم الطالب: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٣٣.
(٤) أبو يوسف: المرجع السابق، ص ١٢٥، يحي بن آدم: الخراج، ص ٧٥.
(٥) يحي بن آدم: الخراج، ص ٧٥، حسن علي حسن و التوم الطالب: تاريخ الحضارة العربية، ص ١٣٤.

مما دفع ببعض المستشرقين إلى القول : (إن الجزية التي فرضت على أهل الذمة، لم تكن شيئاً مجحفاً، ولم تكن فادحة بالنسبة لما كانت تقوم به الدولة من إنشاءاتٍ و إصلاحاتٍ[1].

و في خلافة عثمان رضي الله عنه، نـج أول كتابٍ يكتبه على عماله: (ألا إن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين، فتعطوهم مالهم، ثم تثنوا بالذمة، فتعطوهم الذي لهم و تأخذوهم بالذي عليهم)[2].

و قد سار عثمان و ولاته سيرة عمر بن الخطاب في التسامح مع أهل الذمة، فكان واليه على العراق، الوليد بن عقبة، يضمن لأهل الذمة أرزاقهم شهرياً[3].

و في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، نجده يساوي في العطاء النصارى بالعرب و الموالي[4]، و كان يوصي عماله في كل مكان بالذمة خيراً، فقد أورد كل من ابن الأثير في الكامل و أبي الفرج في الأغاني، أنه قد أمر أحد عماله بحفر نهر لأهل الذمة يروون منه أرضهم[5].

و تظهر المعاملة الحسنة، و عدل الإسلام في تلك القصة المشهورة، و هي أن يهودياً شكا علي بن أبي طالب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فلما مثل بين يديه، خاطب عمر اليهودي باسمه، بينما خاطب علياً بكنيته، قائلاً : " يا أبا الحسن " على عادته في مخاطبته، فغضب علي، فعجب عمر لغضبه و قال: أكرهت أن يكون خصمك يهودياً؟ و أن تمثل معه أمام القضاء؟ فقال علي كرم الله وجهه : لا و لكني غضبت لأنك لم تسو

---

(١) علي حسني الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٠٨، نقلاً عن: فون كريمر : الحضارة الإسلامية، ص ٨٣، و فان فلوتن: السيادة العربية، ص ٢٠.

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك، ج ٢ ص ٥٩٠.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، (نشرغوتين) القدس، ١٩٣٦م ، ج ٥ ص ٣١.

(٤) اليعقوبي: أحمد بن جعفر بن يعقوب بن واضح (٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) : تاريخ اليعقوبي، طبعة النجف، ١٩٣٩ م، ج ٢ ص ١٥٩.

(٥) ابن الأثير، عز الدين علي بن أحمد بن محمد الجزري الشيباني (٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) : الكامل في التاريخ: مطبعة بيروت، ١٩٦٥ م، ج ٣ ص ١٥٩، أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، مطبعة التقدم ١٣٢٣ هـ، ج ١٦ ص ٣٦.

بيني و بينه، بل فضلتني عليه بكنيتي، و ما كان لك أن تفضلني عليه، لأننا أمام الحق سواء(١).

كما تتمثل نزاهة الإسلام و عدله في القصة المشهورة الأخرى، و ذلك عندما وجد علي بن أبي طالب درعه عند مسيحي، فجاء إلى شريح القاضي شاكياً، ولعدم وجود بينة على دعواه، أمر القاضي بالدرع للمسيحي، فما كان من المسيحي إلا و أعلن إسلامه و أقر بأن الدرع لعلي، فما كان من علي إلا و إن قال: (أما إذا أسلمت فالدرع لك)(٢).

و قد أوصى علي بن أبي طالب عامله على " عكبرا "* قائلاً له : (.. أنظر إذا قدمت عليهم، فلا تبيعن لهم كسوةً شتاءً و لا صيفاً و لا رزقاً يأكلونه و لا دابة يعملون عليها، و لا تضربن أحداً فيهم سوطاً في درهم، و لا تقمه على رجله في طلب درهم، و لا تبع لأحدٍ منهم عرضاً في شئ من الخراج، فإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو)(٣).

و هكذا نجد أن خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم قد ضربوا لنا المثال الواضح في التمسك بهدى رسولنا الكريم و الاقتداء بسيرته الطاهرة، و أنزلوا كل ذلك إلى عالم الواقع، في تعاملهم و سياسة دولتهم و تدينهم فلله درهم.

---

(١)صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص ٤٧٦.
(٢) الطبري : تاريخ الأمم و الملوك، ج ٨ ص ١٣٩.
* عكبراء : بليدة من نواحي دجيل ... بينها و بين بغداد عشرة فراسخ (الفرسخ ثلاثة أميال)، ياقوت ج ٤ ص ١٤٢.
(٣) أبو يوسف : الخراج، ص ١٦، محمد ضياء الدين الريس: الخراج و النظم المالية للدولة الإسلامية، ص ١٨٤.

٣- أهل الذمة في العهد الأموي

منذ قيام الدولة الأموية على يد مؤسسها معاوية بن أبي سفيان، و جد أهل الذمة التسامح و حسن المعاملة من بني أمية، فتمتعوا بحريتهم و حقوقهم كاملة، فعاشوا في كنف الدولة و مارسوا العديد من الأنشطة، و شغلوا العديد من الوظائف و المناصب في الدولة.

فمنذ بداية الدولة نجد مؤسسها معاوية يتخذ كاتباً يهودياً هو " سرجون الرومي "(١) الذي ظل في وظيفته لعدد من الخلفاء بعد معاوية.

كما اتخذ الخليفة عبد الملك بن مروان من أهل الذمة " شمعل " كاتباً له، و سار الخليفة سليمان بن عبد الملك على نفس الخطى في استخدام الذمة حيث جعل " ابن البطريق " كاتباً له(٢).

فمن الأمثلة السابقة يتضح أن أهل الذمة عاشوا في مجتمع بني أمية بحرية تامة و تفاعلوا مع المجتمع في أعلى مستوياته، و عملوا في وظائف الدولة الهامة مثل الكتابة و غيرها(٣) ، هذا فضلاً عن بعض المهن الأخرى كالطب، تلك المهنة التي لها خطرها، فنجد كوكبة من الأطباء الذميين في البلاط الأموي ، و قد وجدت تلك الكوكبة الحفاوة و التكريم من الحكام و المواطنين ، فنجد منهم " ابن إثال " و أبو الحكم النصرني و سرجون اليهودي و غيرهم(٤) .

و مما يجدر ذكره أن الحجاج بن يوسف الثقفي* والي عبد الملك بن مروان، قد

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٩٧، تريتون: أهل الذمة في الإسلام، ص ١٤.
(٢) البلاذري: المرجع السابق، ص ١٤٩، تريتون: المرجع السابق، ص ١٤.
(٣) حسن علي حسن و التوم الطالب: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٣٤.
(٤) نفسه ، ص ١٣٤.

* الحجاج بن يوسف: ولد و نشأ في الحجاز ، كان اول أمره شرطيا، ثم صار أميرا للعسكر حين أمره عبد الملك بن مروان بقتال بن الزبير، حيث استطاع قتل بن الزبير و تشتيت أعوانه، فعينه عبد الملك واليا على مكة و الحجاز ثم أضاف إليها العراق التي حكمها بالبطش إلى أن استتب الأمن. و بالرغم اتفاق المؤرخين حول بطشه و سفكه للدماء إلا إن له فضائل كثيرة، فهو أول من أعطى المال على قراءة القرآن، و أول من ضرب درهما =

اتسمت فترة ولايته بكثير من التجاوزات و المظالم التي حسبت ضد الدولة الأموية و اتخذها بعض المؤرخين ضد بني أمية بصورةٍ عامة، و هنا لا يمكننا إنكار معاناة أهل الذمة من سياسة الحجاج بن يوسف و من ضمن تلك التجاوزات التي يمكن إيرادها، أنه لم يشفع لأهل الذمة إسلامهم في رفع الجزية عنهم، و عن فرارهم من قراهم أعادهم إليها، كما فرض الجزية على الرهبان(١) .

هذا غير ما قام به الحجاج و عماله من قسوةٍ و بطشٍ و شدةٍ على أهل الذمة إذا ما تأخروا في دفع الجزية، كما فقد الكثيرون منهم وظائفهم بالعراق(٢). و مهما كان أمر تلك المظالم التي عانى منها أهل الذمة، إلا أنه يمكننا تعزيتهم فيما و قع عليهم من الحجاج و عماله، بالقول أن تلك التجاوزات و المظالم و ما صحبها من شدةٍ و قسوةٍ قد امتدت أيضاً إلى كثيرٍ من المسلمين، و لكن مما يحز في النفس أن بعض المستشرقين المجحفين أمثال " فان فلوتن " (٣) و " فون كريمر "(٤) و " دوزي "(٥) قد سحب تلك المظالم التي وقعت في عهد الحجاج على كل العهد الأموي، و هذا حكمٌ غير عادلٍ، أن نأخذ أحداً بجريرة غيره.

و يكفينا هنا أن نأخذ اعترافات بعض المستشرقين المنصفين منهم، فهذا " توماس ارنولد " ، يقول : (أن المسلمين لم يألوا جهداً في معاملة رعاياهم من المسيحيين)(٦). كما أكد " بارتولد " : (إن النصارى كانوا أحسن حالاً تحت حكم المسلمين)(٧). كما ذكر " شد " SHEDD : (إن العرب عاملوا النصارى و اليهود معاملة تتميز بالتسامح(٨).

= عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله، أخباره كثيرة، مات بواسط (٤٠ هـ - ٩٥ هـ)، الزركلي : الأعلام ، ج ٢ ص ١٦٨.

(١) ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد (٣٤٩ هـ / ١٩٤٠ م) : العقد الفريد، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، ١٩٤٠ م، ج ٣ ص ٤١٦.

(٢) علي حسني الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٠٤.

(٣)السيادة العربية، ص ٤٣٠.

(٤) الحضارة الإسلامية، ص ٦٩.

(٥) نظرات في تاريخ الإسلام، ص ٤٠١.

(٦)علي حسني الخربوطلي: المرجع السابق، ص ١٠٥، نقلاً عن : توماس ارنولد: الدعوة إلى الإسلام (ترجمة حسن ابراهيم حسن)، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٤ م، ص ٦٥.

(٧) ف . بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية، (ترجمة حمزة طاهر)، الطبعة الخامسة، درا المعارف بمصر ١٩٨٥م، ص ١٩،٢٠.

(٨) SHED (W. AMBROSE) : ISLAM AND THE ORIENTAL CHURCHESE . PHILADELPHIA,1904 .110.

كما نجد " جوزي " يمتدح بني أمية، لأنهم ساووا بين طبقات الفرس، و عاملوا أهل الذمة بالحسنى[١] .

فتلك الشهادات من المستشرقين لها أهميتها في توضيح ما اتسم به العهد الأموي من تسامح و معاملةٍ طيبةٍ لأهل الذمة، أما ما قام به الحجاج ضدهم يعد من الشاذ الذي لا يغير القاعدة.

و أورد " البلاذري " في تعامل بني أمية مع أهل الذمة، أن معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأول، كان يتخذ لأبنه " يزيد " مربياً مسيحياً، ثم نجد أن " يزيد " نفسه فيما بعد يكلف كاهناً مسيحياً لتثقيف ابنه " خالد " [٢] .

أما الحجاج بن يوسف، المتهم باضطهاد أهل الذمة، فقد كان عامله بخراسان يبني لهم البيع، و قد سمح له الحجاج بذلك[٣].

و في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، كان الشاعر الأخطل و هو مسيحي، يدخل المساجد في دمشق و الكوفة، فيقف المسلمون إجلالاً له[٤] . و في عهده أيضاً سميت الدراهم " السميرية " باسم من قام بضربها، و هو سمير اليهودي[٥] .

كما أمتاز عهد عمر بن عبد العزيز بالتسامح مع أهل الذمة، حيث نفى "بارتولد" عنه منع النصارى من بناء كنائس جديدة و إصلاح الكنائس القديمة[٦].

(١) على حسنى الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٠٥، نقلا عن : جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، ص ٤٥.
(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ٥ ص ٢٣٦..
(٣) ابن النديم، محمد بن اسحق (ت ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م) : الفهرست، المطبعة الرحمانية بالقاهرة، ١٣٤٨ هـ ، ج ٢ ص ٤٦٧.
(٤) أبو الفرج الأصفهاني(٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م) : كتاب الأغاني، مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٢٥، ج ٧ ص ٧١.
(٥) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (١٤٥ هـ / ١٤٤١ م) : النقود الإسلامية، طبعة محمد بحر العلوم، النجف ١٩٦٧ م، ص ٣٥.
(٦) ف . بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٤٥ .

و يمتاز عهد عمر بن عبد العزيز بكثير من الإصلاحات، و منها وضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة[1]. فقد كتب إلى أحد عماله: (.. إن الله جل ثناؤه بعث محمداً صلى الله عليه و سلم داعياً إلى الإسلام و لم يبعثه جابياً فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه في ماله الصدقة، و لا جزية عليه ..)[2] . و كان من أهم نتائج ذلك أن أقبل الناس إلى الإسلام.

وقد قيل للجراح بن عبد الله والي خراسان، أن الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفوراً من الجزية، فامتحنهم بالختان، فكتب بذلك إلى عمر بن عبد العزيز، فرد عليه قائلاً: (إن الله بعث محمد صلى الله عليه و سلم داعياً و لم يبعثه خاتناً)[3] . كما خفف عمر ابن عبد العزيز الجزية عن أهل نجران، و كانوا آنذاك " بنجرانية الكوفة "* فجعل عليهم عشر ما كان عليهم في الأصل[4].

و في حقيقة الأمر، إن أهل الذمة تمتعوا بالكثير بعدل عمر و رحمته، فقد كان يصدر أوامره إلى عماله بألا يهدموا كنيسة أو بيعة أو بيت نار صولح أهل الذمة عليه[5]، كما نهى عامله على الكوفة في اتباع سياسة الحجاج في عسف أهل الذمة و إرجاعهم إلى قراهم بالقوة، بل كتب إليه أن يعطي أهل الذمة ما بقي من خراج الكوفة ، فيسدد ديونهم و يساعد من أراد الزواج منهم، و ختم رسالته بقوله: (.. قدم أهل الذمة فإننا لا نريدهم لسنةٍ و لا لسنتين)[6].

و مما يوضح لنا ما تمتع به أهل الذمة من نصيبٍ كبير في وظائف الدولة، ما يذكره " ديمومبين "[7] ، بقوله : (إن أهل الذمة احتلوا مكانة بارزةً في الدولة الأموية و كثر عددهم في الدواوين و المصالح).

---

(١) أبو يعلي: الأحكام السلطانية، ص ٢٤٦.
(٢) أبو يوسف: الخراج، ص ١٣١، أبو يعلي المرجع السابق، ص ٢٤٧.
(٣) أبو يعلي: المصدر السابق، ص ٢٤٨.
* نجرانية الكوفة: سميت بنجران اليمن، التي أجلى عمر بن الخطاب أهلها إلى نجرانية الكوفة بالعراق، البلاذري: فتوح البلدان، ص ٧٨.
(٤) نفسه، ص ٧٨، أبو يعلي: المرجع السابق، ص ٢٤٨.
(٥) الطبري: تاريخ الأمم و الملوك، ج ٨ ص ١٤١.
(٦) ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن القرشي المصري(٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م): سيرة سيدنا عمر بن عبد العزيز، المطبعة الرحمانية بالقاهرة ١٩٢٧ م، ص٦٧.
(٧) ديموبين، مورس غودفرا: النظم الإسلامية، بغداد ١٩٥٢ م، ص ١٦٧.

كما يرى " ساويرس"(١)، أن الحكم الأموي قد ساعد القبط على إحياء اللغة القبطية، و طرد اللغة اليونانية، كما ساعد الكنيسة القبطية ضد الكنيسة الملكانية* البيزنطية، فامتلكت بيعها. كما لم يحرم القبط من حريتهم الدينية و لم يمنعهم من بناء معابدهم، بل أعطاهم المجال الواسع في حكم مصر وإدارة مرافقها، كما جعل النظام المالي كله بأيدهم. و رغم التدابير التي اتخذها عمر بن عبد العزيز، مما أدى إلى مضايقة أهل الذمة، إلا أنهم ظلوا يسيطرون على الجهاز الحكومي حتى العصر العباسي.

و مما تضايق منه الأقباط أيضاً، اعتراف الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٧هـ / ٧٢٦م، بحق أهل المذهب الملكاني في انتخاب بطريارك لهم، بعد أن كانوا بلا بطريارك منذ الفتح الإسلامي لمصر(٢). و هذا يوضح شدة المنافسة بين المذهب القبطي اليعقوبي و المذهب الملكاني.

كما أنه بهرب آخر خلفاء الدولة الأموية، مروان بن محمد إلى مصر بعد معركة الزاب*، نجد أن جنده قاموا بالكثير من العبث في مصر، و قتلوا جماعة من القبط و سبوا النساء، و أحرقوا بعض الأديرة، و هدموا بعض الكنائس، كما قاموا بسحب البطريارك القبطي و البطريارك الملكاني حتى يقوما بدفع ما فرض عليهما من المال(٣).

و إذا ذلك التصرف نجد أن (ساويرس بن المقفع)، يذهب إلى أن والي مصر، كان يكره النصارى و صادر أملاك الكنيسة و ما فيها من آنية الذهب و الفضة، و لكن في واقع الأمر أ ن ذلك الإجراء، كان لابد منه لأن الخليفة مروان، كان في حاجةٍ للمال لتمويل المقاومة ضد بني العباس، و يبدو أن بعض الكنائس تمنعت من تسليم ذخائرها، فما كان من مروان إلا و أن تصرف ذلك التصرف.

---

(١) ساويرس بن المقفع: سير الأباء البطاركة، باريس ١٩٠٧ م، ص ١١٦.

* الملكانية نسبة إلى ملك الروم، و هم يقولون إن الله اسم لثلاث معان فهو واحد من ثلاثة و ثلاثة من واحد، و قالوا إن اتحاد الله بعيسى كان باقياً حال صلبه، الشهرستاني: الملل و النحل، ج ١ ص ٢٦٦.

(٢) ساويرس بن المقفع: المرجع السابق، ص ١١٦.

* الزاب: الزاب الأعلى نهر بين الموصل و اربيل، حدثت فيه معركة الزاب المشهورة بين مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية و بين بني العباس، ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٢٤.

(٣) ساويرس: المرجع السابق، ص ١٧٥ و ما بعدها.

و قد أدى ذلك التصرف إلى قيام الثورات في كلٍ من رشيد* و سمنود*، و لكنها سحقت و قتل كثيرٌ من اتباعها، و كان لتلك الأحداث أثرها الواضح في استيلاء بني العباس على مصر بسهولةٍ، وذلك نتيجةً لمساعدة الأقباط للعباسيين، و كشفهم مخبأ مروان بن محمد في بعض كنائس بوصير*.

و استبشر الأقباط بالحكم الجديد، و تعاون معه بطرياركهم " ميخائيل " أول الأمر، و لا سيما حين أعفى العباسيون بعض الأقباط من الضرائب و خففوها عن بعضهم الآخر(١)، و قد دام ذلك حتى مطلع عهد المنصور.

---

* رشيد: بلدة على ساحل البحر و النيل، قرب الإسكندرية. ياقوت: ج ٣ ص ٤٥.
* سمنود: بلدة من نواحي مصر، جهة دمياط، أزلية على ضفة النيل بينها و بين المحلة ميلان. ياقوت: ج ٣ ص ٣٥٤.
* بوصير : بلدة وسط الدلتا قرب سمنود، لكن الباحثون يرجحون أن المقصود بلدة بوصير الأخرى الموجودة في مديرية بني سويف في الصعيد. شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج ١ ص ١٢٥.
(١) ساويرس بن المقفع: سير الآباء البطاركة، ص ١٨٩.

الفصل الثالث

أهل الذمة في العصر العباسي الأول

١-أهل الذمة كرعايا للدولة العباسية.

٢ -استخدام الذميين في وظائف الدولة.

٣ -العلاقة مع المؤسسات الكنسية.

٤ -الحياة العامة لأهل الذمة و جهودهم العلمية.

١- أهل الذمة كرعايا للدولة العباسية

يعتبر التعايش مع أهل الذمة، كرعايا للدولة الإسلامية، أحد أسس النظرية السياسية للعباسيين في الخلافة[١]. و هذه النظرية تقوم على الآتي:-

١- إبراز القرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم و الحق في إرثه كأساس للشرعية في الحكم.
٢- القيام بأمر الدين كتطبيق عملي لتلك القرابة.
٣- تمثيل الجماعة الإسلامية في الحكم.
٤- توطيد المذهب السني و تبينه كمذهب رسمي للجماعة الإسلامية.
٥- التعايش مع أهل الذمة كرعايا في الدولة الإسلامية يعترف بهم الإسلام.
٦- رفض الحركات المارقة و الزندقة و محاربتها، باعتبارها تهديداً للدين الإسلامي و نظام الحكم.

و يعتبر الخليفة أبو جعفر المنصور من أبرز الواضعين لهذه النظرية، و من جاء من بعده من الخلفاء لم يضف عليها إلا بعض التفاصيل و التزيين.

و كان من نتائج رفع الجزية عمن أسلم تحول عددٌ كبيرٌ من الذميين إلى الإسلام، تهرباً من الجزية و الكلف التي كانت عليهم، و كان هذا التحول يتم باستمرار، و انتهى الأمر بأن أصبح أهل الذمة أقلية، بعد أن خسروا أكثريتهم، و قد تزايد دخول الذميين في الإسلام فيما بين عهدي الرشيد و المعتصم في الفترة ١٧٠هـ / ٧٨٧م إلى ٢١٨ هـ / ٨٣٣م، مما جعل من ميزان القوى من حيث الأكثرية العددية ينتهي لمصلحة المسلمين لا سيما في مصر و الشام و المغرب[٢].

و كانت بعض الطوائف غير الإسلامية كالمانوية و النسطورية و اليعقوبية متحمسة كل الحماس للوقوف فكرياً في وجه الإسلام، و في وجه تحول أتباعها إليه، فكان

---

(١) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، الكويت، الطبعة الأولى ١٩٧٣م، ج ٢ ص ٨.
(٢) نفسه، ص ٤٢، ٤٣.

يتم تجهيزهم بكافة المبادئ و الأسلحة للمقاومة و الثبات على معتقداتهم، و أحياناً عن طريق الهجوم على الإسلام.

و كان من نتائج هذا الصراع بين الدعوة الإسلامية و تلك الطوائف غير المسلمة و ما كانت تبشر به من أفكار أن اضطرت الدولة العباسية في تعايشها و تعاملها مع أهل الذمة لاستخدام سلاح العقل و المنطق و الحجج الفلسفية في المعركة(١).

و كان من تمام العمل الديني للخلفاء العباسيين الأوائل، أن يتعاملوا حسب ما يراه الشرع الإسلامي مع أهل الديانات و العقائد الأخرى التي كانت تعيش بينهم، و هذا الموقف له جانب نظري و آخر تطبيقي و إذا نظرنا إلى الديانات الأخرى و مذاهبها آنذاك نجد أتباعها يتوزعون في أقاليمها كالآتي:-

كان ينتشر في مصر مثلاً المذهب اليعقوبي بين الأقباط، هذا بجانب المذهب الملكاني الذي يغلب في الشام. أم الديانة اليهودية فنجد أن أصحابها موزعون في مختلف المدن الإسلامية من المشرق في خراسان إلى أقصى المغرب. أما العراق ما بين السواد حتى مناطق الجزيرة العليا، فكان يتميز بإحتوائه على خليطٍ ديني معقد، فتتعايش فيه مع الإسلام و النصرانية و اليهودية رواسب العقائد الوثنية كالصابئة. و تزاحم فيه المانوية* الزرادشتية المجوسية، كما تظهر فيه طوائف خليط بين النصرانية و المجوسية كالديصانية* و المرقيونية*، هذا بجانب جماعات منشقة من نساطرة* و يعاقبة و سريان و هي مذاهبٌ لا هي راضية عن كنيستي بيزنطة أو روما و لا تلك الكنائس بالراضية عنها.

---

(١) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج ٢ ص ٩١.

* المانوية: ديانة بين المجوسية و النصرانية، أحدثها "ماني بن فاتك"، وزعم أن العالم مركب من أصلين قديمين هما النور و الظلمة، و ينزع في مذهبه منزعاً أقرب إلى الرهبنة. الشهرستاني: الملل و النحل، ج ١ ص ٢٩٠.

* الديصانية: هم أصحاب ديصان، أثبتوا اصلين، نوراً و ظلاماً، فالنور يفعل الخير قصداً و اختياراً و الظلام يفعل الشر طبعٌ و اختياراً، الشهرستاني: ج ص ٢٦٩.

* المرقيونية: هم أصحاب مرقيون، أثبتوا أصلين قديمين متضادين، أحدهم النور و الثاني الظلمة، و أثبتوا أصلاً ثالثاً هو المعدل الجامع، و هو سبب المزاج، و هو دون النور في المرتبة و فوق الظلمة، و حصل من الامتزاج و الاجتماع هذا العالم. الشهرستاني: المصدر السابق، ج ١ ص ٢٩٨.

* النساطرة: أصحاب نسطور، و قال أن الله واحد و الأقانيم ثلاثة، و هذه الأقانيم ليست زائدة على الذات، و لا هي هو، و اتحدت الكلمة بجسد عيسى لا عن طريق الامتزاج و لا عن طريق الظهور، و لكن كإشراق الشمس في كوة على بلورة و ظهور النقش في الشمع إذا طبع بالخاتم. الشهرستاني : المصدر السابق، ج ١ ص ٢٦٩.

فنجد العباسيين، يتخذون الموقف الفقهي الإسلامي كأساس في معاملتهم لأهل الذمة ، هذا من الناحية النظرية، و بيان أحكام الدين في رعاية أهل الكتاب، و جباية الجزية منهم ، و منحهم حرية العبادة ، و معاملتهم بالحسنى و حفظهم في معابدهم و أموالهم و رهبانهم[١].

و قد حدد " أبو يوسف " في كتابه الخراج، ذلك الموقف الفقهي للعباسيين، بقولة للرشيد: (.. ينبغي أن أتقدم بالرفق بأهل الذمة و التفقد لهم حتى لا يظلموا أو يؤذوا أو يكلفوا فوق طاقتهم و لا يؤخذ شئ من أموالهم إلا بحق يجب عليهم[٢].

و لكن يهمنا هنا من هذه المبادئ التطبيق العملي، و كيف ترجم العباسيون تلك الأحكام و الأوامر الدينية من خلال الواقع الحياتي، و الظروف المتطورة إلى أعمال و مواقف تاريخية، ساسوا فيها الناس.. و حكموهم، إذن يهمنا هنا ما كان و ليس يجب أن يكون.

قد يكون الأمويون بذلوا اهتماماً أوسع بالمناطق القريبة من الدولة، التي تمتلئ بالمسيحيين، بينما العباسيون أكثر اهتماماً بالمظهر الإسلامي لسياستهم من بني أمية، و قد كانوا يهتمون و يشجعون الداخلين في الإسلام من أهل الديانات الأخرى، و لكن هذه الفروق لم تكن تصوغ الوقف العباسي و هو الذي يتمثل في موقف الشرع الإسلامي منهم نظرياً و تطبيقياً. بل كانت هناك عوامل أساسية تصوغ الموقف العباسي من أهل الذمة، و هي **حصيلة ثلاثة عناصر:-**

أولاً: أن أعداد المسلمين – عدا العرب – كانت تتكاثر باستمرار و كانت تتركز في المدن بصورةٍ خاصةٍ، بينما كان الريف سواءً في إيران أو العراق أو الجزائر أو مصر أو الشام يحتوي على كتلة السكان المحافظة على معتقدها و دينها السابق[٣].

و كان السبق الحضاري يعطي أبناءها الأولين أن تكون الصناعات و الحرف بأيديهم، و أن تكون فيهم العلوم الأولى، و كانت الحاجة إلى الحرف الزراعية و الأسس

(١) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٠٤.
(٢) أبو يوسف: الخراج، ص ١٢٤، ١٢٥.
(٣) شاكر مصطفى: المرجع السابق، ص ١٠٥.

الحضارية في إقامة الدولة تفرض على المسلمين الفاتحين – بالإضافة إلى أوامر الدين برعاية الذميين – أن يكون بينهم و بين أهل الذمة تعاوناً و تعايشاً سلمياً، و كان هذا ما استقرت عليه السياسة الإسلامية منذ العهد الأموي، ثم استمر عليه العباسيون من بعد.

فكان أهل الذمة يشاركون في حياة المدن الاقتصادية عامة، و الاجتماعية و الأدبية و العلمية، و في المهن الأخرى دون تمييز، فكان منهم التاجر و الصراف و البزاز و المهندس و النحاس و العطار و صاحب الإقطاع و الجوهري[١]، بل احتكروا غالباً بعض الأعمال كالطب و التنجيم[٢]، و دخلوا في وظائف الدولة، و برزت منهم كفايات إدارية في سلك الكتاب و عمال الخراج، و استقبلوا باحترام في بلاط الخلفاء، كما اعترف لهم برؤسائهم الروحيين و بقانونهم الديني.

و برغم ما تمتعوا به من مزايا و حقوق، إلا أن ذلك لا يمنع اجتماعياً من تعرضهم لبعض التحديات الناجمة من اعتزاز المسلمين بقوة الدولة و شعورهم بالتفوق السياسي و الاجتماعي.

ثانياً: ضغط الأحداث على جبهة الروم:- إن بقاء الدولة البيزنطية و اتصالها الجغرافي و الروحي بمناطق المسيحيين في الجزية و الشام و مصر و صلتها الروحية بهم، جعل هؤلاء الذميين موضع الريبة و الشك من قبل النظام الإسلامي. وقد برهنت الأحداث التي استخدم فيها هؤلاء النصارى كراس جسر و منطلق إلى الأراضي الإسلامية عن صدق تلك الريبة[٣].

و لم يكن كذلك المجوس، لأنهم فقدوا دولتهم منذ حركة الفتوح الإسلامية نهائياً.

فهكذا ضغط الأحداث الروم و هي القريبة من العراق، ينعكس أحياناً على موقف العباسيين من الذميين عامة، و يتجلى لنا ذلك في عدد من المضايقات، التي لا تمس على أية حال دينهم أو أموالهم أو معابدهم أو نظامهم الكنسي، و إنما تنصب خاصة على تمييزهم الطائفي عن المسلمين في اللباس و المعاملة و منعهم الجهر بالعبادة أو إظهار

---

(١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، ص ١٠٥.
(٢) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ): المختار في الرد على النصارى، دار الصحوة للنشر و التوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤م،ص ٨٧.
(٣) شاكر مصطفى: المرجع السلبق، ج ٢ ص ١٠٦.

الشعائر أو بناء المزيد من المعابد، و مثال ذلك ما جرى لهم في عهد كلٍ من الرشيد والمتوكل[١].

و لما كان هذا العامل عارضاً، فإن تحول الأحداث الحربية مع الروم، كان كفيلاً دوماً بإلغاء هذه المضايقات بسرعةٍ أو تناسي تطبيقها و العودة إلى خط التعايش الثابت.

ثالثاً :- ضغط رجال الدين و ردود أفعالهم ضد طغيان بعض الموظفين الذميين:-

إن رعاية الخلفاء العباسيين للفقهاء و رجال الدين و العلماء و اضطرارهم السياسي و الديني لسماع مواعظهم و توجيهاتهم – سواءً عن تدين أو خوفٍ من تحرك العامة – كان من أسس السياسة العباسية، و كثيراً ما كانت هذه المواعظ و التوجيهات تمس قضية الذمة، و استخدامهم خاصة في الدولة، و كانت الاستجابة غالباً ما تنصب على طرد الذميين من الوظائف أو مصادرة بعضهم، بما أساءوا استغلاله من المنصب ، و هكذا نجد وراء كل تصرف من هذا النوع جرى في عهد المنصور و المهدي و المأمون و المتوكل – موعظة من عالمٍ أو فقيهٍ، أو شكوى محقة لامست موضع الإثارة الدينية من الخليفة[٢].

و لكن هذا التأثير بدوره كان عارضاً، فما تهدأ الأمور بعد عاصفة التسريح و الصرف من الأعمال، حتى تعود عملية التعاون و التعايش المعتادة الدائمة إلى سابق عهدها.

و مما هو جدير بالذكر و الملاحظة، الآتي:-

١- أن جميع الإجراءات التي كانت تتخذ ضد الذميين ، كانت تنصب على النصارى و اليهود فقط دون المجوس[٣]. و تصيبهم في بغداد و العراق خاصة دون باقي أنحاء الدولة. و ندر أن كان يتفق تعميمها كما جرى في عهد المتوكل.

---

(١) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج ١ ص ١٧١.
(٢) نفسه، ص ١٦٧ و ما بعدها.
(٣) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٠٧.

أما المجوس فقد كان يأتي الاضطهاد لبعضهم من الاتهام بالزندقة*، و كان يشمل أصحاب الوظائف منهم تحت هذا الشعار لا بسبب الريبة و عدم الولاء و التسلط و التعسف على المسلمين.

و على كلٍ فلم تبلغ تلك المضايقات في أقصى أدوارها، العنف الذي بلغته الحملة على الزنادقة و الملحدين و أصحاب المجون، بالرغم من أن التحدي النصراني – حسب ما يراه الجاحظ – لم يكن من ناحية الحظر على العقيدة بأقل من التحدي المانوي(١).

و إذا اضطهد بعض المسيحيين اضطهاداً قاسياً، فلم يكن ذلك لنصرانيتهم و لكن لاتهامهم بالزندقة، و هذا ما يمكن فهمه من إشارات " ديونوسيوس التلمحري"، عن اضطهادات النصارى و المانوية من عبدة الرؤوس في الجزيرة، و ما يفهم من أقوال المؤرخ " ميخائيل الكبير " السوري، البطريك الذي يجعل اضطهاد النصارى جزءاً من حركة اضطهاد الزنادقة و المانوية(٢).

٢- إن أيام التوتر تلك و الأزمات التي كانت تصيب النصارى و اليهود من الذمة، في العصر العباسي الأول، لم تكن في نظر الخلفاء و لا في نظر رجال الدين، عملياتٍ هجومية انتقامية، و إنما كانت في أساسها الأعمق عمليات دفاعية.

و إذا كان الخلفاء و الفقهاء يقومون بها، فإنما كانت من وجهة نظرهم كائنة يقومون بجزء من واجبهم الديني في الدفاع عن الإسلام و أرضه و أهله و مصالحه.

٣- إن الذميين لم يكونوا سلبيين تجاه السياسة العباسية و المجتمع الإسلامي، فمع النظام الحاكم امتدت مواقفهم ما بين التعاون المطلق غالباً و بين العصيان المسلح أحياناً في بعض المناطق.

---

* الزندقة: هي ليست عربية إنما هي تعريب لمصطلح إيراني كان يطلقه الفرس على من يؤولون " الأفستاء" كتاب داعيهم زرادشت تأويلاً ينحرف عن ظاهر نصوصه. و اتسع مدلول الكلمة في العصر العباسي ليشمل كل من استظهر نحلة من نحل المجوس، و اتسعت أكثر من ذلك لتشمل كل إلحادٍ بالدين الحنيف و كل مجاهر بالإثم و الفسوق. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، دار المعارف، ج.م.ع، الطبعة الثامنة، ١٩٦٦م، ص ٧٩.

(١) الجاحظ: المختار في الرد على النصارى، ص ٢٩.

(٢) شاكر مصطفى: المرجع السابق، ج ٢ ص ١٠٨.

و كان من المعتاد أن يرى من بين رجال البلاط أكثر من موظفٍ كبير (طبيبٍ أو موظفٍ أو كاتبٍ) من أهل الذمة، و أن يحضر بعض مجالس الخلفاء للعمل أو المناظرة العلمية أمام خليفةٍ مثل المهدي أو الرشيد أو المأمون. و أن يزور " الجاثليق "* أو البطريك قصر الخلافة بين آونةٍ و أخرى. وأن يزينوا بعض البلدان و ينثروا الرياحين و يقدموا الولائم، و ينصبوا الأقواس لمرور الخليفة، كما جرى للمأمون بقرية " طاء النمل " بمصر، و للمتوكل " بنصيبين " حين اجتازوها إلى الشام، هذا بجانب شفاعتهم التي كانت تقبل في الكثير من الحيان لأبناء نحلهم.

و قد يتولون الخراج عمالاً عليه، أو يكون منهم الكاتب في الدواوين المختلفة، و كانوا في فترات الأزمات ينحنون للعاصفة إلى أن تمر[1]، فيلبسون الغيار* و يشدون الزنار* و الشارات المميزة، فترة قصيرة، ثم ما يلبثون يصلوا إلى إلقاء ذلك القرار.

وقد جرى ذلك أكثر من مرةٍ، فإن لم يلغ رسمياً أهمل في التطبيق تدريجياً حتى يصبح حبراً على ورق ثم نسياً منسياً.

و لو أن تلك القرارات المتكررة بطرد الذمة أو بإلزامهم بالتمييز عن المسلمين أو غير ذلك، بقيت مرعية التطبيق دائماً منذ صدرت أو ل مرة، لما سمعنا بتكرارها مرةٍ بعد مرة على توالي عهود الخلفاء.

و ما من شك أن تلك المضايقات كانت تحز في نفوس الذميين، و تهدد الكثير منهم في وضعهم الاجتماعي أو أمورهم المالية،أو مراكزهم المعنوية، و لكن ندر جداً أن سمعنا تمرداً عليها أو تحدياً لها. أم ما نسمع به من عصيان في أنحاء الدولة، أو بخاصةٍ

---

* الجاثليق: صاحب الصلاة، ثم صار هو رئيس النصارى في بلاد الإسلام بمدينة السلام، الشهرستاني: الملل و النحل ، الجزء الأول (الهامش)، ص ٦٨، و الجاثليق كلمة كاثوليك و يستعملها الأرمن و الناسطرة. شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٤٢ (الهامش).

(١) شاكر مصطفى : المرجع السابق، ج ٢ ص ١٠٩.

* الغيار: الغيار لباس يخالف المسلمين. ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة، ج ١ ص ١٧٧.

* الزنار: خيط يشده غير المسلم على وسطه تمييزاً له. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص ٧١.

في مصر من قبل القبط، فقد كانت أسبابه ماليةً خراجية، دوماً تتعلق بالعسف في الجباية أو التزيد فيها[١]، لا بأوامر التميز و التضييق الاجتماعي أو الديني.

فقد قام القبط في الفترة ما بين ١٠٧ هـ / ٧٢٦ م و سنة ٢١٦ هـ / ٨١١ م بثمان ثورات و حركات تمردٍ ، ثلاثٌ منها في العهد الأموي، و خمسٌ منها في العهد العباسي، و كافة تلك الثورات كان الباعث عليها العسف المالي ، و هذا العسف كثيراً ما كان القائمون عليه من موظفي الذمة أنفسهم. و رغم كل ما سبق ذكره، و ما حل بالذمة من مضايقات إلا أن ذلك لم يثن أهل الذمة بمختلف مللهم عن نشاطهم التبشيري، فقد وصلت وفودهم أطراف الدولة العباسية، في عهود المنصور و المهدي و الرشيد[٢].

٤- إن حصيلة كلٍ من السياسة العباسية تجاه الذمة، و الموقف الذمي تجاه النظام الإسلامي، كان في جانب الإسلام، بتكاثر عدد المؤمنين به، دون إرغام للتحول إلى الدين الإسلامي.

و لكن كان للعوامل المختلفة من جدل ديني، أو ما اتخذ من إجراءات تمييز، أو الرغبة في الخلاص من الخراج أو الجزية، أو الطمع في مكانةٍ أو منصبٍ بالدولة، أو عن اقتناع حقيقي بالدين الإسلامي، انتهت كلها إلى تحول عددٍ كبيرٍ من الجماعات الذمية إلى الإسلام. و كان هذا بالطبع يزيد من نقمة الذميين و نقمة كنائسهم و كهانهم و يزيدهم شعوراً بالغبن، تلك الخسارة المستمرة في تناقص اتباعهم.

كما كانت عمليات التحول أحياناً تستتبع نوعاً من الظلم المالي الشديد في المناطق التي كان الخراج و الجزية فيها ضريبة جماعية محددةً على القرية أو المنطقة، فكان على الباقين على دينهم القديم أن يدفعوا مع ضريبتهم، ضرائب من أسلم منهم أو هرب من قريته أو حقله[٣]، و كان يحدث في مصر و في الجزيرة و خراسان.

---

(١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، ج ٢ ص ١١٠.
(٢) ماري بن سليمان: أخبار بطاركة كرسي المشرق، روما ١٨٩٩م، ص ٧٣،٧٤.
(٣) تريتون: أهل الذمة في الإسلام، ص ٢٥٢.

و هكذا فإن الذميين في مطلع العصر العباسي الأول كانوا أكثرية واضحة، و في نهاية العصر العباسي أصبحوا أقلية متناقصة باستمرار، بينما حافظت أرقام الجباية في الخراج و الجزية على أرقامها، و كثيراً ما ارتفعت من ذي قبل، و لذلك كان ضيق الذميين ينبع من منبعين في وقتٍ واحدٍ:-

(أ) دينيٌ ناجمٌ عن خسائر الجماعة الدينية و نقصها.

(ب) ماليٌ ناجمٌ عن زيادة نسبة الضرائب حتى الإرهاق.

الذمة في عهد المنصور (١٣٦هـ / ٧٥٤ م – ١٥٨ هـ / ٧٧٥م):-

عندما قيام الدولة العباسية بنى أهل الذمة من المجوس العديد من الآمال على هذا التحول، و اعتبروا أنفسهم حلفاء لهذا العهد الجديد، فترة من الوقت، ثم ما لبثوا تبينوا واقعه العربي الإسلامي أن ثاروا عليه، ثورات مسلحة عديدة، لم تشترك فيها طوائف النصارى، لأنها لم تكن تنتظر من النظام الجديد شيئاً، فلم يكن " أبو العباس" بالنسبة لها كخليفة جديد كغيره من حكام بني أمية السابقين(١).

و مما يذكر أن " النجرانية " نثروا الرياحين في طريق أبي العباس السفاح، عند منصرفه من المسجد إلى منزله بالكوفة، و احتفوا به، فأعجبه ذلك منهم، ثم رفعوا إليه أمرهم أعلموه قلتهم، يطلبون منه رد الجزية إلى ما كانت عليه قبل ولاية يوسف بن عمر الأموي على العراق الذي أعاد إليهم الجزية القديمة التي وضعها الحجاج بن يوسف عندما كان والياً على العراق، و كانت تقدر بألف و ثمانمائة حلة، فردهم أبو العباس إلى مائتي حلة قيمتها ثمانية ألف درهم(٢).

و كانت نقمة الحجاج عليهم بموالاة ابن الأشعث*، و لكنهم تظلموا إلى عمر ابن عبد العزيز و شكوا إليه فناءهم و نقصهم و ما لحقهم من ظلم، الحجاج، فأسقط عمر بن عبد العزيز جزية الميت و من أسلم منهم، فألزمهم مائتي حلة قيمتها ألف درهم، فجعل عليهم عشر ما كان عليهم في الأصل(٣). و عندما عرضوا الأمر على أبي العباس جعلها على ما كانت عليه في عهد عمر بن عبد العزيز(٤).

---

(١) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج ٢ ص ١١٣.
(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٧٩.
* ابن الأشعث: هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي، أمير من القادة الشجعان الدهاة، و هو صاحب الوقائع مع الحجاج بن يوسف، سيره الحجاج بجيش لغزو ملك الترك فيما وراء سجتان، و قام بالمهمة ثم أشار إلى الحجاج بالتوقف، فاتهمه الأخير بالجبن و أمره بمواصلة القتال، فاستشار بن لأشعث من معه، فوافقوه الرأي بايعوه على خلع الحجاج و خلع الخليفة عبد الملك بن مروان. وعاد ابن الأشعث للعراق عام ٨١هـ لقتال الحجاج، و استطاع هزيمة جيوش الحجاج و الاستيلاء على سجتان و كرمان و البصرة وفارس ثم خرجت البصرة من يده، فاستولى على الكوفة، فقصده الحجاج و حدثت بينهم موقعة " دير الجماجم " التي دامت ثلاثة أيام و مائة، و التي انهزم فيها ابن الأشعث. قتل عام ٨٥ هـ و بعث إلى رأسه إلى الحجاج.
الماوردي: الأحكام السلطانية، (الهامش) ص ٢٦٥، ٢٦٦، نقلا عن الأعلام، ج ٣ ص ٢٨٩، ٢٩٠.
(٣) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٧٨، أبو يعلي: الأحكام السلطانية، ص ٢٤٨.
(٤) البلاذري: المرجع السابق، ص ٧٩.

كما يذكر أن خلافاً وقع بين النساطرة في اختيار " الجاثليق " سنة ١٣٣ هـ / ٧٥١ م ، حيث استنصر البطريك " سورين " بأمير المدائن و تنصب بقوة السلاح، و لكن الآباء استغاثوا بأمير المؤمنين أبي العباس، فردهم إلى اختيارهم الحر، فاختاروا "يعقوب الجنديسابوري " بطريكاً بدلاً عن " سورين " الذي مكث في منصبه أقل من شهرين[١].

فهذان المثلان يبينان الموقف العباسي المبدئي من أهل الذمة. كما نجد أن الخليفة المنصور قد أعطى هذا الموقف أبعاداً أخرى و ذلك حين استخدم أهل الذمة فيما يبدو بشكلٍ واسع[٢]، فكان منهم طبيبه " الخصيب " النصراني ثم من بعده " جورجيس ابن بختيشوع " و عندما مرض سمح لـه المنصور بالعودة إلى بلده مع أكبر رعاية، و ترك "جورجيس " لدى المنصور تلميذه " عيسى بن شهلاثا " الذي تدخل في أمر الطائفة النسطورية حتى صار أمرها بيده[٣].

و كان حول بلاط المنصور كوكبة من أهل الذمة، مثل مطران نصيبين " قوفريانوس " و إبراهيم الطبيب الذي خلف " عيسى بن شهلاثا " و المطران اسحق اليعقوبي الذي ادعى معرفة الكيمياء و سر الذهب[٤]، و " نوبخت " المنجم الفارسي المجوسي الذي كان يرافق الخليفة.

أما خارج القصر فنجد كثيراً من عمال الخراج من أهل الذمة، فنجد على سبيل المثال موسى اليهودي، أحد اثنين عينهم المنصور في السواد، كما أوكل إلى الكثيرين منهم بأن يقبضوا ما يجدونه لبني أمية و منحهم حرية العسف و التحري في ذلك.

و يبدو إن الصلة الطيبة بين المنصور و مطران نصيبين، جعلت الأخير يقيم مذبح و هيكل الكنيسة الكبرى في نصيبين دون حرج. و يبدو أن هذا التسامح الواسع لم يجد أي اعتراض من الفقهاء و الناس، لولا أن هؤلاء الذميين أساءوا استغلال وظائفهم، فظلموا و عسفوا و غصبوا الأموال.

---

(١) ماري بن سليمان: أخبار بطاركة كرسي المشرق، ص ٩٦.
(٢) الطبري: تاريخ الأمم و الملوك، ج ٣ ص ٤٢٣.
(٣) ماري بن سليمان: المرجع السابق، ص ٦٧، ٦٨.
(٤) تريتون: أهل الذمة في الإسلام، ص ٨٦.

و اتخذوا من تسامح الخليفة سلماً لشهواتهم،[1] مما جعل الخليفة يصدر أمره بإخراجهم من الأعمال ، و لكن ذلك كان مجرد تدبير عارض ، لأننا سوف نفاجأ بهم قد كثروا و قويت شوكتهم في عهد المهدي من بعد[2].

و من جهةٍ أخرى فقد تدخل المنصور فيما كان قد امتنع عنه أخوه أبو العباس، من أمر اختيار رؤساء الكنيسة، و كان الدافع لأبي جعفر المنصور في ذلك تحريض من كان في حاشيته من النصارى، فقد أرغم المطارنة و الأساقفة على اختيار " اسحق الرهاوي " مطران حران بطريكاً سنة ١٣٨هـ / ٧٥٦م تقريباً[3] و أصدر منشوراً بإقراره في منصبه، كما أعان " إثناسيوس الثالث " بالجند لتأييده في منصبه، فلما مات بعد عامين، انشقت الكنيسة، و استطاع أسقف دارا* الوشاية بالمرشح الأقوى " جورجيس " عند الخليفة، و لذلك وقفت السلطة العباسية في جانب خصمه " حنا " للبطركة، و بعد موته صار " داوود " أسقف دارا بطريكاً بتأييد السلطة سنة ١٤٦هـ / ٧٦٤م. و تكرر الأمر نفسه بالنسبة لجاثليق النساطرة، و تدخل المنصور في الخلاف على كرسي البطركة بتأثير و تحريض بعض أفراد الحاشية المقربين له من النصارى.

أما معاملة المنصور لعامة أهل الذمة فلم يكن فيها أثرٌ للتعصب أو العسف، بل كانت تتسم بالرفق و التسامح و الإنصاف لهم، و لكننا نرى سياسة الخلفاء تختلف من جهةٍ لأخرى، فنجد مثلاً أن بعض عمال المنصور، في منطقة الجزيرة المتاخمة للروم، قد تأثروا بجو الحرب المتبادل بين الدولتين، و لذلك اعتبروا الذميين أكثر قابلة للتواطؤ مع البيزنطيين بسبب وحدة الدين، و لذا فقد قاموا ببعض تدابير الضغط و القسوة على الذميين هناك[4].

و لكن مما يجب ملاحظته، أنه رغم وجود تلك التدابير، إلا أننا نجد في روايات بعض مؤرخي النصارى مبالغة واضحة و تحاملاً فيما وصفوا به المنطقة من دمار

(١) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ص ٨٦.
(٢) الجهشاري، أبو عبد اله بن عبدوس (٣٣١ هـ) : الوزراء الكتاب، طبعة البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨م، ص ١٣٤.
(٣) ساويرس بن المقفع: سير الآباء البطاركة، ص ٢٠٥.
* دارا: بلدة بين نصيبين و ماردين، من بلاد الجزيرة ذات بساتين ومياه جارية، و من أعمالها يجلب المحلب الذي تتطيب به الأعراب. ياقوت: معجم البلدان، ج ٢ ص ٤١٨.
(٤) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٢١.

اقتصادي مرجعه سياسة الدولة نحو أهل الذمة. و رغم إنكارنا لدور بعض الولاة في المساهمة فيما حل بالمنطقة من دمار، إلا أنه من الإنصاف أن نذكر تلك العوامل و الأسباب الرئيسية الكثيرة التي أدت ما أدت إليه.

فقد عانت منطقة الجزيرة من الثورات المحلية الكثيرة و بخاصة ثورات الخوارج، كما عانت من فقد الأمن و تكاثر اللصوص و قطاع الطرق من البدو و بعض المجموعات الكردية[1]، هذا فضلاً عن تلك الغارات التي كان يقوم بها الإقطاعيون المسيحيون بعضهم ضد البعض، و كان لكلٍ منهم عصابته المسلحة و قراه الجبلية المحصنة.

و قد شكا الخليفة هارون الرشيد مما في المنطقة من المارقة المتلصصة و مخيفي السبيل، و قرر قطع دابرهم[2]، و لكن استمر الأمر حتى عهد المعتصم الذي أزال ما كانت عليه بلاد الموصل و باجرمي* من أمر اللصوص و كبس القرى[3].

و عليه فإن ما تعرض له السكان من قسوةٍ و ظلمٍ، و تعرضت له التجارة و طرقها من نهبٍ و تدميرٍ، كان لابد أن يصيب رشاش ذلك بعض الأديرة و الكنائس، و ما فيها من ذخائر و ما تحمل أرضها من ثروةٍ زراعية، و قد زاد من تفاقم الأمر ثقل الضرائب و شدة جبايتها مما أدى إلى هرب الكثير من الفلاحين إلى المدن، و قد زاد من استيائهم إن الولاة كانوا يرغمونهم في العودة إلى قراهم، مما أدى إلى هروب بعضهم إلى بلاد الروم، و احتمل الآخرون آلامهم صابرين ناقمين[4].

كما انه تبعاً لمقتضيات الدفاع أجبر سكان المناطق الاستراتيجية على الحدود إلى الرحيل داخل البلاد، وأحل محلهم جماعات عربية عسكرية مقاتلة.

---

(١) شاكر مصطفى: المرجع السابق، ج ٢ ص ١٢١.
(٢)الطبري: تاريخ الأمم و الملوك، ج ٣ ص ٧٠٦.
* باجرمي: قرية قرب الرقة من أرض الجزيرة، ياقوت: معجم البلدان، ج ١ ص ٣١٣.
(٣) ماري بن سليمان: أخبار البطاركة، ص ٧٧.
(٤) شاكر مصطفى دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٢١.

أما الوضع في الشام فقد كان أحسن حالاً من الجزيرة، فقد كان لبطريك أنطاكية مكانته الخاصة، كما أن أكثر من واحدٍ من مطارنة دمشق اليعاقبة أو النساطرة صاروا بطاركة في المدائن و بغداد في هذه الفترة.

و مهما يكن من أمر، فإن الريبة في علاقات الذميين بالروم، كانت تجعل النظام الإسلامي في حذرٍ منهم و لا سيما في لبنان. و قد جاءت حادثة " بندار "* في لبنان سنة ١٤٢هـ / ٧٥٩م، لتؤكد عدم الولاء للدولة الإسلامية، و كانت تلك الحادثة تتمثل في نزول أسطول بيزنطي على طرابلس، بينما يقوم " بندار" بالهجوم على بعلبك* و قرى البقاع و بفشل الخطة و هرب " بندار" مع الأسطول البيزنطي، حلت العقوبة على سكان جبل لبنان الذين والوا " بندار " و عاضدوه ، و لذا حاربهم القائد صالح بن علي العباسي و أجلاهم عن المنطقة.

و رغم أن السبب في تلك الحادثة، إنما يعود إلى الشكوى من عامل الخراج في بعلبك و قسوته، و لكن ما رافق قمعها من تدبير، و هو إجلاء الجماعات المشبوهة بالمنطقة، و توزيعها في بلاد الشام، حتى لا تكون نواة للتمرد، أو رأس جسرٍ يعبر منه الروم إلى المنطقة.

و لكننا نجد أن الإمام الأوزاعي قد احتج على هذا الإجلاء و كتب إلى والي دمشق يحرم عليك ذلك شرعاً، في رسالةٍ طويلة أعطى فيها الوالي درساً في سياسة الذمة في الإسلام، قال فيها: (.. حكم الله ألا تزر وازرةٌ وزر أخرى ، و أحق الوصايا أن تحفظ و ترعى وصية رسول الله صلى الله عليه و سلم، فإنه قال : من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه..)(1).

---

* بندار: رجل ظهر في لبنان سنة اثنين أو ثلاث و أربعين و مائة و سمى نفسه الملك و لبس التاج و أظهر الصليب، و قد يكون " البندار " اسما و صفة يوصف بها التاجر المحتكر للمؤن و البضائع و يخزنها حتى وقت الغلاء.
شاكر مصطفى: المرجع السابق، ج ١ ص ٢٠١.
* بعلبك: مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة و قصور من أساطين الرخام لا نظير لها في الدنيا، بينها و بين دمشق ثلاثة أيام. ياقوت: ج ١ ص ٤٥٣.
(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦٧، أبو عبيد القاسم: الأموال، ص ١٨٣،١٨٤.

أمـا فـي مصـر فقد كانـت كتلة السكان الأساسية، فـي مطلـع العصـر العباسـي من الأقباط الذمـة، هذا إذا استثنينا الطبقة الحاكمة العربية و الجند معها و بعض المسلمين في الأمصـار. حيـث كـثر انتشـار الإسـلام بقـرى مصـر و نـواحـيها مـنذ بدايـة المائـة الثانـية للـهجرة[1].

و من الملاحظ تكرار الثورات في مصر، كثورة " سمنود" (قلب الدلتا على فرع دمياط" سنة ١٣٦هـ / ٧٥٤م، حيث خرج "أبو مينا القبطي" بثورةٍ ضد العسف الضريبي و الإرهـاق المالـي، فبعث الوالـي أبـو عـون عبد الملك بن يزيد* بـأحد قـواده الـذي أنـهى الثورة و تمكن من قتل أبي مينا[2].

و لكن أبـا عـون نفسه نجده يحسن معاملة الأقباط و يعطف على كنائسهم و يخفف عنهم الخـراج[3]، إثـر خـروجهم مـع المسلمين من أجل زيـادة النيل، و لكـن سـرعان مـا عادت الضـرائب إلـى سـابق عهدهـا، كمـا تقاضـاها الخليفة المنصـور مـمـن ترهـبن هربـاً منـها[4]. كمـا قـام القبط بثورةٍ مسلحةٍ سنة ١٥٠هـ / ٧٦٨م في بلدة سخا (في الدلتا جنوب شرم الشيخ)، نتيجة لكثرة الضـرائب و قسوة جمعهـا، و من أسبابها أيضاً أن الوالـي كان قاسياً فـي جمـع الضـرائب من السكان، فقامت تلك الثورة و انضمت إليها بعض المناطق الأخـرى كالبشرود* و الأوسية* و البجوم* و معـترضـة علـى ذلك العسف الضـريبي ، و قامت بطـرد عمـال الخـراج، و لكن تلك الثورة ما لبثت أن تشتت[5].

---

(١) المقريزي: تقي الدين احمد بن علي(٨٤٥هـ / ١٤٤١م): المواعظ: و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار، طبعة بيروت ١٩٦٣م، ج ٢ ص ٢٦١.

* أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي، تولى مصر مرتين الأولى في عهد أبي العباس سنة ١٣٣هـ حتى ١٣٥هـ، ثم صرف عنها ليقود جيوش المغرب، ثم أعيد إليها في عهد المنصور سنة ١٣٧هـ و بقي حتى سنة ١٤١هـ. شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٢٦.

(٢) الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف (٣٥٠هـ / ٩٦١م) : كتاب الأمراء و الولاة و كتاب القضاة، طبعة لندن ١٩١٧م، ص ١٠٢.

(٣) ساويرس بن المقفع: سير الأباء البطاركة، ص ٢٠٠.

(٤) شاكر مصطفى: مرجع سابق، ج ٢ ص ١٢٦.

* البشرود: كورة من كور بطن الريف بمصر من كور أسفل الأرض، ياقوت: معجم البلدان، ج ١ ص ٤٢٨.

* الأوسية: بلد بمصر من ناحية أسفل الأرض يضاف إليها كورة (صقع يشتمل على عدة قرى) فيقال كورة الأوسية و البجوم. المرجع السابق، ج ١ ص ٢٨١.

* البجوم: بلد يضاف إليها كورة (عدة قرى) من قرى أسفل الأرض بمصر، فيقال كورة الأوسية و البجوم، المرجع السابق، ج ١ ص ٣٤٠.

(٥) الكندي: الولاة و القضاة، ص ١١٦، ١١٧.

ثم اندلعت الثورة في مكان آخر بلهيب* سنة ١٥٦هـ / ٧٧٣م و لكنها خمدت بهزيمة الثوار[1].

و مما هو جدير بالذكر أن تلك الثورات و الاضطرابات المحلية المتعددة المواضع في مصر، سنجدها تتكرر فيما بعد، و أسبابها تكاد تكون واحدة و هي تنحصر في الخراج وطرق جبايته.

* بلهيب: من قرى مصر، صالح عمرو بن العاص أهلها على الخراج و الجزية و توجه إلى الإسكندرية، ولكنهم أعانوا الروم على المسلمين، فلما فتح عمرو بن العاص الإسكندرية سبى أهل بلهيب و حملهم إلى المدينة و غيرها، فردهم عمر بن الخطاب إلى قراهم و صيرهم ذمة. المرجع السابق، ج ١ ص ٤٩٢.

(١) الكندي: المرجع السابق، ص ١١٩.

الذمة في عصر الرشيد (١٧٠هـ / ٧٨٦م – ١٩٣هـ ٨٠٩م)

تستمر صورة العلاقة مع أهل الذمة منذ عهد المهدي إلى آخر عهد الواثق (١٥٨ هـ / ٧٧٥م – ٢٢٧هـ / ٨٤٢م) دون تغيير يذكر، سوى ازدياد الرعاية لأهل الذمة مع ازدياد الطابع الإسلامي للدولة و عدم تدخل الخلفاء في شئون الكنائس إلا عند الخلاف الذي يحدث بين الطوائف المسيحية.

و لكننا نجد أن والي مصر علي بن سليمان العباسي فيما بين ١٦٩هـ / ٧٨٥م – ١٧١هـ / ٧٨٧م، يقوم بهدم بعض الكنائس المحدثة بمصر، ولكن من تولى الأمر من بعده (موسى بن عيسى) سنة ١٧٢هـ / ٧٨٨م، سرعان ما أصدر للنصارى بنيان الكنائس التي هدمت في عهد سلفه فبنيت كلها، و قد تم ذلك بمشورة الأئمة الليث بن سعد* و عبد الله ابن لهيعة*، حيث أفتيا أن ذلك من عمارة الأرض، و احتجا بأن عامة الكنائس التي بنيت بمصر لم تبن في إلا الإسلام في زمن الصحابة و التابعين(١)، و لم يعترضوا على بنائها.

ولكن في زمن الرشيد يأمر في سنة ١٩١هـ / ٨٠٧م بهدم الكنائس و الثغور، كما ألزم أهل الذمة بالغيار في لباسهم و ركوبهم(٢) و هذا الموقف الذي أظهره الرشيد تجاه الذمة غالباً ما يكون للموقف الخارجي مع البيزنطيين أثرٌ كبيرٌ فيه(٣).

---

* الليث بن سعد: خراساني الأصل، ولد عام ٩٤هـ في قلقشند و توفي في القاهرة عام ١٧٥هـ، كان إمام أهل مصر في عهده، قال فيه الإمام الشافعي (الليث أفقه من مالك إلا إن أصحابه لم يقوموا به).
الماوردي : الأحكام السلطانية، الهامش، ص ١٣٤، نقلاً عن الأعلام ج ٥ ص ٢٤٨.
* عبد الله بن لهيعة: قاضي مصر، من الرواة و لكنه ضعيف الحديث و ليس ممن يحتج بحديثه.
الرازي: كتاب الجرح و التعديل، دار الفكرة، المجلد الخامس، ص ١٤٥ و ما بعدها.
(١) الطبري: تاريخ الأمم و الملوك، ج ٥ ص ٣.
(٢) حسن الزين: أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي، بيروت ١٩٨٢م ص ٩١.
(٣) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٣٣.

الذمة في عصر المأمون (١٩٨هـ / ٨١٣م – ٢١٨هـ ٨٣٣م) :

كان مجلس المأمون يضم ممثلين من جميع الأقليات الخاضعة لحكمه من يهودٍ و نصارى و صابئةٍ و زرادشتيين.

و كانت حقوقهم وامتيازاتهم مرعية و مضمونة. وقد بلغت أعداد الذميين في دواوين المأمون على الجيش و الخراج أعداداً وفيرةً تزيد في بغداد و السواد فقط على ألفين و ثمانمائة موظف، هذا عدا بعض الجهات الأخرى التي كان يتولى أمرها بعض العمال النصارى و اليهود[1] و وصل الأمر أن كان المسلمين يتظلمون إلى المأمون في مصر من العمال الأقباط.

و حدث أن ثار القبط بمصر، و اشتد ضغط الروم على الجبهة، وجاهر أهل الذمة في بغداد بالبغي و الفساد على معلم المأمون، علي بن حمزة الكسائي، فقرأ المأمون أمامه مرةً إلى أن وصل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ.)[2] . فقال الكسائي: يا أمير المؤمنين، أتقرأ كتاب الله و لا تعمل به، فأمر المأمون بصرف أهل الذمة، و بقى جماعة من اليهود منحازين إلى حماية بعض جهاته، فخرج توقيعه بما نسخته: (أخبث الأمم اليهود، وأخبث اليهود السامرة ، و أخبث السامرة بنو فلان ، فليقطع ما بأسمائهم من ديوان الجيش و الخراج إن شاء الله)[3].

---

(١) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج ١ ص ١٧٠، ١٧١.
(٢) سورة المائدة، آية ٥١.
(٣) ابن قيم الجوزية: المرجع السابق، ص ١٧١.

الذمة في عصر المتوكل (٢٣٢ هـ / ٨٤٧م – ٢٤٧هـ ٨٦١م):

أمر الخليفة المتوكل في سنة ٢٣٩هـ / ٨٥٤م ، أهل الذمة بلبس الغيار ، كما أمر بهدم البيع التي استحدثت في الإسلام(١)، و في سنة ٢٤١هـ / ٨٥٥م اعتدى أهل حمص على عامل المتوكل، و قد أعانهم على ذلك قومٌ من نصارى حمص، فغضب المتوكل منهم و أمر بمناهضتهم، و ألا يترك في المدينة نصرانياً. و على الرغم من غضبة المتوكل على النصارى حسب ما يرويه ابن قيم الجوزية(٢): (إلا أن المباشرين للأعمال من أهل الذمة قد كثروا في زمان المتوكل، و زادوا على الحد و غلبوا المسلمين، لخدمة أمه و أهله و أقاربه. و كانت الأعمال الكبائر كلها أو عامتها إليهم في جميع النواحي).

و هكذا نجد أن التعاون بين الدولة وأهل الذمة، قد صاب ببعض الأزمات، منها ما قد يكون سببه تسلط الذميين وتعسفهم ضد الرعية، و منها ما يكون ناتج عن ضغط الفقهاء و رجال الدين ضدهم، و بعضها الآخر ما قد يكون ناجمٌ عن حوادث الحدود مع الدولة البيزنطية.

فمثلاً نجد أن بعض الذمة، استطاع أن يوقع بالكثير من الكتاب المسلمين، كما أن بعضهم تعسف ضد المسلمين، مما أدى إلى تظلم الناس منهم، فاشتد لذلك غضب المتوكل عليهم، فأمر بعزلهم عن الوظائف و الأعمال و عدم الاستعانة بهم(٣).

و يبدو أن أمر المتوكل هذا قد نفذ أكثر الأوامر السابقة، و ذلك بسبب تكاثر المسلمين في القرن الثالث عنهم في القرن الثاني الهجري، و توفر الأكفاء منهم للأعمال و لعل هؤلاء أنفسهم، كانوا وراء إصدار مثل هذا القرار أيام المتوكل، ليتولوا هم الأعمال التي كان يشغلها أهل الذمة و كانت متوارثة بينهم بشكلٍ تقليدي منذ العهد الأموي(٤).

(١) الطبري: تاريخ الأمم و الملوك، ج ٥ ص ٣٢٠.
(٢) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج ١ ص ١٧١.
(٣) نفسه، ص ١٧٤.
(٤) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٣٥.

٢- استخدام الذميين في وظائف الدولة

أبقى العرب النظام الإداري على حاله التي وجدوه عليها، و اصطفوا الموظفين الذين وجدوهم عند مقدمهم كفاتحين للأمصار. و ذلك لأن العرب الأوائل كانوا منشغلين بحركات الفتح و الجهاد و لم تكن لديهم الكفاءة اللازمة للأعمال الإدارية، فتركوا ذلك لأهل الذمة رغم ما في ذلك من إيجابيات مكنتهم من مواصلة سير حركة الجهاد و نشر الدعوة، بجانب ما بها من سلبيات مكنت أهل الذمة من ترسيخ أهل الذمة لأقدامهم في الوظائف الهامة في الدولة.

ففي الأيام الأولى نجد أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قد استعمل بعضاً سبي قيسارية كتاباً و أدخلهم في خدمة الدولة(١).

كما نجد أن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، كان له كاتباً أعجمياً هو " سرجون"(٢)، الذي خلفه ابنه من بعده، كما ولى معاوية أيضاً طبيبه " ابن إثال " جمع خراج حمص(٣).

و قد كانت الدواوين حتى زمن الخليفة عبد الملك بن مروان تدون باليونانية و القبطية و الفارسية، و في ذلك خير دليل على أن من يقوم بهذا الأمر هم من أهل الذمة. فيروي لنا البلاذري(٤): أن متولي قلم الصرف (وهو كتابة الخراج) في الشام كان سورياً، و في إيران كان فارسياً.

فمن ذلك يمكننا القول أن أهل الذمة كانوا يشغلون وظائف الدولة منذ قيام الدولة الإسلامية، و قد جرت العادة استعمال النصارى الذين قلما خلى منهم ديوان من دواوين

---

(١) تريتون: أهل الذمة في الإسلام، ص ١٣، البلاذري: فتوح البلدان، ج ٢ ص ١٤٢.
(٢) تريتون: نفسه، ص ١٣، البلاذري: نفسه، ص ١٩٣.
(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٢ ص ٨٢، أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج ١٥ ص ١٢.
(٤) البلاذري: المرجع السابق، ص ١٩٣.

الدولة[١]، و ذلك لأن العربية لم تستعمل لأول مرة في أعمال الحكومة إلا بأصفهان زمن أبي مسلم، حسب ما يرويه ابن رستة[٢].

فنجد أن العرب عندما أتموا فتح مصر، أبقوا من فيها من العمال البيزنطيين، و من هؤلاء عاملٌ يدعى " ميناس " كان هرقل قد ولاه أعمال المنطقة الشمالية من البلاد، فظلَّ يباشر عمله كما كان يباشره من قبل[٣]. و هناك آخر يدعى " شنودة " وكلت إليه حكومة الريف، و نجد ثالثاً اسمه " فلوكسنوس " كان والياً على " أركاديا " أو الفيوم،[٤] و من الأشخاص المعروفين " إثناسيوس " الرهاوي، الذي شغل بعض مناصب الحكومة في مصر، و كان ينعت في المكاتبات الرسمية بالكاتب الأفخم[٥].

كما شغل " ثيودوسيوس " و هو من الملكانيين البارزين منصباً في الإسكندرية و مريوط و ما لحق بهما دون أن يكون والي مصر سلطان عليه[٦].

إلا أننا نجد أن الخليفة عمر بن عبد العزيز، قد كره أن تكون يد الذمي هي العليا، فيكون له سلطان على المسلمين، فقد عمل على منع ذلك، و رسالته في هذا الصدد إلى الولاة تعليمية يقول فيها : (أما بعد، فإن الله عز و جل أكرم بالإسلام أهله ، و شرفهم و أعزهم، و ضرب الذلة و الصغار على من خالفهم، و جعلهم خير أمة أخرجت للناس، فلا تولين أمور المسلمين أحد من أهل الذمة فتبسط أيديهم و ألسنتهم ... و تعرضهم لكيدهم و الاستطالة عليهم..)[٧]. و لذلك نجده قد عزل جماعة من العمال القبط بمصر و استبدل بهم عمالاً مسلمين.

---

(١)المقريزي: المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار، ج ١ ص ٩٨.
(٢) ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ص ١٩٦.
(٣) تريتون: أهل الذمة في الإسلام، ص ١٥.
(٤) المقريزي: المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار، ج ٢ ص٩٨.
(٥) تريتون :المرجع السابق، ص ١٥.
(٦) نفسه، ص ١٦.
(٧) الكندي: الولاة و القضاة، ص ٦٠. ابن عبد الحكم : سيرة سيدنا عمر بن عبد العزيز، ص ١٦٥.

كذلك اتخذ الخليفة سليمان بن عبد الملك كاتباً نصرانياً يقال له " البطريك ابن النقا " و استعمله ناظراً على مبانيه في الرملة بفلسطين و مراقبة القنوات و الآبار و المسجد القائم بها[١].

أما العباسيون فقد استخدموا الذمة في شتى الوظائف الحكومية منذ عهد المنصور[٢]، و كان الباب مفتوحاً أمامهم لتقليد تلك الوظائف و الأعمال.

و خير دليل على ذلك ما يتكرر كثيراً لدى المؤرخين من ذكر إخراج أهل الذمة من وظائف الدولة ، في عهد كلٍ من المنصور و المهدي و الرشيد و المأمون و المتوكل[٣].

و كان إخراج الذمة من الوظائف و الأعمال، عبارة عن عاصفةٍ عابرةٍ، يدفع إليها في الغالب الطابع الإسلامي المتزايد في الدولة منذ وقتٍ مبكرٍ من عمرها.

و من الأعمال التي تولاها أهل الذمة في الدولة، نذكر على سبيل المثال، طبابة الخلفاء و التنجيم لهم، و القيام بجباية الخراج و أمر الكتابة في الدولة.

فنجد مثلاً أن الخليفة المنصور قد استخدم موسى اليهودي الذي كان أحد إثنين من جباة الخراج[٤]، كما كان " تيوفيل بن لوقا" النصراني رئيساً لمنجمي الخليفة المهدي[٥]،كما اشتهر في قصر المهدي أيضاً " أبو قريش عيسى الصيدلاني " الذي كان أثيراً لدى الخيزران زوجة الخليفة، مما جعله يكون مقدماً على أكبر أطباء المهدي[٦]، جورجيس بن جبريل الجنديسابوري، الذي اتصل بالبلاط العباسي منذ عام ١٧١هـ / ٧٨٧م، كما اتصل ابنه جبريل بالبرامكة عام ١٧٥هـ / ٧٩١م بتوجيه منه، و نال حظوة لدى الخليفة هارون الرشيد.

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٤٣.
(٢) تريتون: المرجع السابق، ص ١٩.
(٣) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج ١ ص ١٦٨- ١٧٤.
(٤) تريتون : المرجع السابق، ص ١٩.
(٥) ماري بن سليمان: سير الآباء البطاركة، ص ٧٥.
(٦) ابن لأبي صبيعة، أبو العباس أحمد بن القاسم(٦٦٨هـ / ١٢٧٠م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت ١٩٦٥، ص ٢١٥، ٢١٦.

و كان من الأطباء أيضاً في قصر الخلافة " بختيشوع " النسطوري و " يوحنا ابن ماسويه " الذي تولى ترجمة الكتب الطبية القديمة، و خدم الرشيد و من أتى بعده إلى أيام المتوكل، و كان معظماً في بغداد، جليل القدرة[١]. كما كان من الأطباء الهنود صالح ابن بهلة و منكا.

أما من كان حول الخليفة المأمون من الذمة، عبد الله بن سهل المجوسي و " ما شاء الله " اليهودي من المنجمين، و سهل بن سابور الطبيب الذي لم يكن يجيد حتى العربية ، هذا بجانب جبريل الكحال و عيسى بن عبد الحكم و جورجيس بن بختيشوع و يوحنا بن ماسويه.

هذا غير من كان يعمل في دار الحكمة في عهد كل من الرشيد و المأمون للترجمة من علماء و تراجمة السريان و النساطرة، أمثال يوحنا بن ماسويه و أبي زيد حنين بن اسحق و ابنه اسحق و حبيش الأعسم الدمشقي، و كانت تلك المجموعة تتمتع في بغداد بالمال و الجاه و التكريم و النفوذ في الدولة[٢].

و بجانب من ذكرنا توجد مجموعة من أهل الذمة لم تشتهر أسماؤها في الكتب، وإن كانت مشهورة لدى عامة الناس في ذلك الوقت، و نعني بهم عمال الخراج و كتاب الدواوين. و فيما يرويه لنا ابن قيم الجوزية[٣] دلالةٌ واضحة على شغل الذميين لوظائف الدولة و تمكنهم حيث يقول: " ... إن أهل الذمة قويت شوكتهم في زمن المهدي ... حتى اجتمع الناس إلى بابه متظلمين من ظلم الذمة".

و كان أهل الذمة في شغل وظائف الدولة في تزايد مستمر، و يعملون في شتى الوظائف في عهد كلٍ من المأمون و المتوكل[٤].

و كانت صلاتهم بأصحاب السلطة طيبة، فقد جاء إلى المأمون رجلٌ من أثريا "بورة " من أعمال مصر اسمه " بكام " سائلاً إياه أن يوليه الأمر في بلدته و يسوق إليه

(١) ترتون : المرجع السابق، ص ١٨٧.
(٢) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٢٩.
(٣) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج ١ ص ١٦٨.
(٤) نفسه، ص ١٧١.

رياستها، فقال لـه الخليفة: " أسلم فتكون مولاي" فأجاب بكام: " لأمير المؤمنين عشرة آلاف مولى مسلم، أفلا يكون له مولى واحد من النصارى"، فضحك المأمون و جعله كبير بلدته "بورة" و إقليمها[١].

(١) تريتون : أهل الذمة في الإسلام، ص ١٣.

٣- العلاقة مع المؤسسات الكنسية

كان لتدخل أحكام الدولة العباسية في اختيار البطاركة، أبعادٌ سياسية و اجتماعية و أمنية، وذلك لمراقبة الدولة الدقيقة للكنيسة خاصة فيما يتعلق باتصال الكنيسة و اتباعها بالدول الخارجية.

و رغم ما كان يتمتع به الأساقفة و رجال الدين من حق مشروع في الاختيار للمناصب الكنسية العليا، إلا أن ذلك الحق يكون في الغالب صورياً، حيث لا يتم إلا برضا الخليفة، وعليه فنجد أن العلاقة بين رجال الدين الذمة و الحاكم الأثر الكبير في الوصول لتلك المناصب، و لذا كان البعض من رجال الدين يسعى للتقرب من الحاكم و كسب وده.

فنجد مثلاً أن اسحق الراهب الذي كان يقيم في دير قرب الرها، لعلاقته الطيبة مع " إثناسيوس " الصيدلاني مطران شمال الجزيرة، يصبح أسيراً عند الخليفة المنصور(١)، فجعله " إثناسيوس " مطراناً لحران دون أن يكون له الحق في ذلك، ثم أن الخليفة المنصور أرغم المطارنة و الأساقفة على انتخابه بطريكاً سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥م، و لإدراك "اسحق" أن الكنيسة لا ترضى عنه و ترحب به، فقد استحضر مكاتيب من الخليفة تقره في وظيفته(٢). و بموته طلب المنصور من الأساقفة اختيار " إثناسيوس " بطريكاً و أعطاه مرسوماً يقره على ذلك، و أعانه بالجند لتأييد مركزه، و لكنه لم يلبث غير عامين ثم مات، وحصل الشقاق في الكنيسة حيث اختار أساقفة الغرب الشماس " جورج" و اختار أساقفة شمال الجزيرة "يوحنا" الذي عاجله الموت، فلم يكن من أسقف " دارا" داؤود إلا و أن وشى بجورج عند الخليفة، فظل جورج في السجن قرابة عشر سنين حتى مات الخليفة(٣). و إذ ذاك انتخب داؤود سنة ١٤٦هـ / ٧٦٣م، و تم ذلك الانتخاب استجابة لرغبة الخليفة المنصور.

---

(١) تريتون: أهل الذمة في الإسلام، ص ٨٦.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه، ص ٨٧.

أما الخليفة المهدي، فقد بدأ عهده بداية طيبة مع بطاركة العراق، حيث أخرج بطريك اليعاقبة " جورجيس " من السجن و أعاده إلى منصبه(١). كما أمر باختيار "حنا نيشوع" جاثليقاً للطائفة النسطورية، عندما خلى المنصب البطريكي بموت " يعقوب " سنة ١٥٧هـ / ٧٧٣م(٢). و لكن هذا البطريك مات بعد أربعة سنوات، مما أدى إلى الخلاف بين النساطرة، إلى أن تم اختيار " طيماثاوس " بطريكاً عليهم و استمر هذا ثلاثاً و أربعين سنة على البطركة، مدة حكم المهدي و الهادي و الرشيد و الأمين، ثم مات في عهد المأمون سنة ٢٠٦هـ / ٨٢١م، و كانت علاقته مع هؤلاء جميعاً كأحسن ما تكون العلاقة، حيث كان يتردد على البلاط و يناقش الخلفاء في الدين، و يحظى بتكريم خاص، و كان يرسل البعوث التبشيرية إلى جنوب الجزيرة العربية و بلاد الخزر * و ملوك الترك و الصين(٣)، و لم يمنعه أحد من الخلفاء ذلك.

و لكن علاقة البطريك اليعقوبي " قيرياقوس " الذي اختير في عهد الرشيد سنة ١٧٧هـ / ٧٩٣م لم تكن على مثل علاقة زميله بالخلافة، و إن حفظ له الخلفاء مكانته الدينية، و ذلك أنه كان يبدو مشغولاً بانقسامات طائفته، فقد قضى وقته في صراع مستمر مع الأساقفة الرهبان الذين كانوا يعارضونه، ثم تلاه " ديونسيوس " ما بين سنة ٢٠٢هـ / ٨١٨م حتى سنة ٢٣٠هـ / ٨٤٥م، حيث بذل كثيراً من الوقت و الجهد للاستقرار في كرسيه مستعيناً في ذلك بالسلطة مثل ما استعان بها خصومه(٤).

و من الملاحظ أن التمزق الطائفي و الصراع على كرسي البطركة، شمل في مطلع القرن الثالث الهجري، كلاً من النسطورية و اليعقوبية على السواء، مما أوقعهما في الخلاف الشديد و الضعف(٥). كما أن الخلاف و الانشقاق ظهر أيضاً في الطائفة اليهودية في تلك الفترة.

---

(١) شاكر مصطفى : دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٣٥.
(٢) ماري بن سليمان: أخبار البطاركة، ص ٧١، ٧٢.
* بلاد الخزر: بلاد الترك خلف الأبواب المعروفة بالدربند، و يقول بن فضلان رسول الخليفة المقتدر إلى الصقالبة، الخزر اسم المملكة لا اسم مدينة. ياقوت: معجم البلدان، ج ٢ ص ٣٦٧.
(٣) ماري بن سليمان: المرجع السابق، ص ٧٣- ٧٥.
(٤) شاكر مصطفى: المرجع السابق، ص ١٣٧.
(٥) نفسه، ص ١٣٨.

و كان نتيجة للخلافات الكثيرة بين أهل الذمة، أن أصدر الخليفة المأمون أمراً فحواه، أنه إذا اتفق عشرة رجالٍ من أي مذهبٍ كانوا على إقامة رئيس لهم، كان لهم ذلك، سواءً كانوا نصارى أو يهوداً أو مجوساً(١). و قد طبق المأمون هذه القاعدة في الواقع مع النصارى، و لم يتدخل في شئون الكنيستين النسطورية و اليعقوبية بشكلٍ مباشر.

و لكن الأزمة بلغت قمتها ضد النصارى في عهد المتوكل، حيث أمر بسجن البطريك النسطوري " بختيشوع " و لم يكن ذلك من اضطهاد ديني، و لكن بلغه أن البطريك يكاتب الروم، و يرفع أخبار الدولة الإسلامية لملك الروم(٢).

و لكن مما هو ملاحظ أن تلك الأزمات تتلاشى بهدوء العاصفة، فتعود الأمور إلى ما كانت عليه سابقاً في حسن التعامل مع النصارى ، و الإحسان إليهم و إلى قادتهم و أكبر دليل على ذلك ما وجدته المعابد الكنسية من رعاية، فقد أورد تريتون: (.. أن الكنائس كانت تبنى بحريةٍ و بموافقة السلطة و أحياناً بمساعدتها)(٣).

فنجد أن الخليفة المتوكل، كان أول من حرم إقامة بيع جديدة، و ذلك بمرسوم أصدره سنة ٢٣٥هـ / ٨٤٩م، فكانت الكنائس قبل ذلك التاريخ تتعرض للهدم تبعاً لهوى الوالي، أو نتيجة للاضطرابات السياسية، و يتوقف ذلك غالباً على طبيعة الحاكم والياً كان أم خليفة، و قد تكون الدوافع وقائية أو دفاعية، تتصل غالباً بممالأة نصارى الحدود للروم ومعونتهم.

و من الواضح أن تدابير الهدم لم تتجاوز الجدود، مثل الأمر الذي أصدره المهدي ١٦٢هـ / ٧٧٨م انتقاماً من الإمبراطور " ليو الرابع " إثر هجماته على الأراضي الإسلامية منذ عام ١٥٩هـ / ٧٧٥م(٤). و هذا الأمر لم يطل، فبانتصار الجيوش الإسلامية سنة ١٦٣هـ / ٧٧٩م، أزيل ما لحق بالنصارى من جراء ذلك الأمر(٥).

---

(١) إلياس الدبس: تاريخ سورية، بيروت ١٩٠٠، المجلد الخامس، ج ٣ ص ٣٤٧.
(٢) ماري بن سليمان: أخبار البطاركة، ص ٧٩، ٨٠.
(٣) تريتون: أهل الذمة في الإسلام، ص ٥١، ٥٢.
(٤) نفسه، ص ٧٤.
(٥) نفسه.

و نسمع في زمن الرشيد بأمره بهدم البيع في البصرة و الأبلة* و غيرها أي (منطقة السواد)، لما بلغه أن النصارى يعبدون عظام الموتى في بيعهم، و لكن لما عرفوه بذلك ليس بعبادةٍ و إنما هو تكريمٌ لأجساد الشهداء و الصالحين، أصدر أمره بإعادة بناء البيع(١).

و مما هو معروف أن النصارى و اليهود حين بنيت بغداد ثم سامراء بعدها قصدوا العاصمتين و سكنوهما، و أنشأوا فيها الكنائس و المعابد العديدة المختلفة، بل انتقل إليهما مقر الرؤساء الدينين أحياناً، فصار للبطاركة مراكزهم فيها، و لرؤساء الجالوت اليهود مقراتهم، مما يعني بوضوح عدم وجود أي خطر في هذا السبيل، و يبدو أن انتقال مقر الرؤساء الدينين المختلفين إلى بغداد كان مبكراً(٢).

و رغم أن للمجوس و النساطرة مقراتهم التقليدية في المدائن، و لليهود مقرهم العتيق في بابل، إلا أن اليهود و النساطرة (الجاثليق) حق السكن في بغداد، و جعلها مقراً لكرسيه، فقام حوله حيٌ للنصارى عرف بدار الروم(٣). و لكن بطريك اليعاقبة لم ينل ذلك الحق، وذلك لأسباب عديدة منها أكثرية النصارى في العراق كانت من النساطرة، فكان للجاثليق فيها سلطة على سبع أبرشيات " مطرانيات "، و منها أن نفوذ النساطرة كان أقوى في البلاط العباسي، و كانوا يدسون لليعاقبة و يعملون على منعهم من حق إقامة مقر بطريكي لهم في بغداد، فبقي مقر بطريكهم في أنطاكية* و ليس له في العراق أكثر من أبرشية في تكريت* و بعض الأديرة في بغداد و منها أن اليعاقبة كانوا مهتمين بممالأة بيزنطة و الميل مع الروم أحياناً، و كان هذا من أهم الأسباب في منعهم من إقامة ممثل لهم مستقر في العاصمة العباسية.

و كان الولاة بدورهم يتصرفون في أمر بناء الكنائس حسب اجتهادهم، فنجد مثلاً

---

* الأبلة: على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، و هي أقدم من البصرة، و كانت فيها مسالح من قبل كسرى، ياقوت: معجم البلدان، ج ١ ص ٧٧.

(١) ماري بن سليمان: أخبار البطاركة، ص ٧٥.

(٢) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٤٢.

(٣) نفسه، ص ١٤٣.

* أنطاكية: قصبة القصور الشامية، و هي من أعين البلاد و أمهاتها، موصوفة بالنزاهة و الحسن و طيب الهواء و عزوبة الماء، و كثرة الفواكه و سعة الخير. ياقوت: معجم البلدان ج ١ ص ٢٢٦.

* تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد و الموصل و هي إلى بغداد أقرب، بينها و بين بغداد ثلاثون فرسخاً، ياقوت: ج ٢ ص ٣٣.

أن والـي مصـر علـي بن سليمان ، زمن الخليفة الهادي، يصر على هدم الكنائس المحدثة في مصـر بعد الفتح[١]، و لكن نجد أن ذلك مجرد تدبيرٌ عابر، حيث سمح خلفه موسى ابن عيسى زمن الرشيد، للنصارى بتجديد الكنائس التي هدمها علي بن سليمان.

بل أن عملية بناء و تجديد البيع و الكنائس كانت عامةً و مستمرة، فنسمع في زمن المهدي أو بعده بقليل عن بناء دير للروم الشرقيين في بغداد، و عن بناء دير سمالة* بالقرب منها أيضاً، كما جدد البطريك " طيماثاوس " في تلك الفترة نفسها " دير كليلشوع" في المدائن و اتخذه مقراً له[٢].

ونجد أن مما دفع عيسى بن موسى- عندما جاء إلى مصر والياً من قبل الرشيد ـ بالسماح للنصارى في بناء الكنائس التي هدمها سلفه علي بن سليمان، تلك الفتوى التي أفتاها إياه أكبر فقهاء مصر في ذلك الوقت الليث بن سعد و عبد الله بن لهيعة، بأن عامة كنائس مصر بنيت زمن الصحابة و التابعين، ولم يعترضوا على بنائها[٣].

و لا شك أن سياسة الرشيد بقيت على هذه الأسس حتى وفاته، و إن كانت أحداث جبهة الروم في أواخر حياته دفعته إلى أن يأمر سنة ١٩١هـ / ٨٠٦م بهدم الكنائس في الثغور[٤]، و أن يبني مدينة الحدث*من أنقاض أثنين منها، فلعله اتخذ هذا التدبير عقوبة لما رأي من تعاون نصارى الحدود مع الروم.

و قد تابع الأمين سياسة والده في هذه الناحية، حيث أصدر منشوراً يسمح فيه ببناء البيع. و بعد مقتله سنة ١٩٨هـ / ٨١٣م أمر والي حران إبراهيم القرشي بهدم مذبح الكنيسة الكاثوليكية و مذبح كنيسة " ثيوتوكس" و جزءاً من بيعة " مارجرجس "

---

(١) الكندي الولاة و القضاة، ص ١٣١، تريتون: أهل الذمة في الإسلام، ص ٤٧.
* دير سمالة: في رقة الشماسية في بغداد مما يلي البردان و هو دير مشيد البناء كثير الرهبان. ياقوت: ج ٢ ص ٥١٦.
(٢) ماري بن سليمان أخبار البطاركة، ص ٧٤.
(٣) الكندي: المرجع السابق، ص ١٣٢.
(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٨ ص ٣٢٤.
* الحدث: قلعة حصينة بين ملطية و سميساط و مرعش، من الثغور، و يقال لها الحمراء، و قلعتها على جبل يقال له الأحيدب. ياقوت: ج ٢ ص ٢٢٧.

و كنائس خلقدونية و الملكانية و النسطورية و كنيس اليهود، و لكنه سرعان ما أفاق و أذن بتشييد ما هدمه بالتدريج، و سرعان ما جددت البيع و الكنائس[١].

و في أثناء الفتنة التي وقعت بين الأمين و المأمون، خربت ديارات كثيرة في مصر ثم أعيد ترميمها بعد سنوات قلائل، و ترد إلينا أخبار عن بناء عددٍ من الكنائس في مصر زمن المأمون، ككنيسة العذراء بناحية القنطرة و كنيسةٍ بجبل المقطم و عدة كنائس غيرها.

كما بني الطبيب " بختيشوع بن جبريل " دير مارجرجس في المدائن، و جمع لهذا الأمر رهباناً و أجرى عليهم الجرايات و النفقات[٢].

كما أن عبد الله بن طاهر عندما تولى الجانب الغربي من الدولة زمن الخليفة المأمون، قدم عليه وفدٌ من العرب يسألونه هدم الكنائس التي استحدثت في السنوات العشر الأخيرة (أثناء فتنة الأمين و المأمون و ما بعدها)،فرفض طلبهم قائلاً: (إن هؤلاء النصارى المساكين لم يستحدثوا عشر الكنائس التي هدمت أو خربت)[٣].

و في عهد المعتصم جدد بعض البطاركة عدداً من البيع و الأديرة في بغداد ، و نجد أن الخليفة المعتصم نفسه ابتاع من السكان النصارى ذلك الموضع و الخرابات المتصلة بالمطيرة* و بنى عليها عاصمته الجديدة سامراء[٤].

ثم انتقل إلى الخليفة المتوكل، الذي أمر سنة ٢٣٩هـ / ٨٥٣م بهدم كل البيع المحدثة في الإسلام[٥]. و لكن أمره هذا لم يستمر طويلاً، كما أنه لم ينفذ التنفيذ الدقيق، وما هي إلا سنوات حتى أهمل الخليفة نفسه تطبيق ذلك الأمر.

(١) تريتون: أهل الذمة في الأسلام، ص ٤٩.
(٢) القفطي، الوزير جمال الدين (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م): إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مختصر الزوزني، ليبزج، ١٣٢٠، ص ١٤٢.
(٣) تريتون: المرجع السابق، ص ٥٠، ٥١.
* المطيرة: قرية من نواحي سامراء و كانت من منتزهات بغداد وسامراء، يقوت: معجم البلدان، ج ٥ ص ١٥١.
(٤) ماري بن سليمان: أخبار البطاركة، ص ٧٧.
(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٩ ص ١٩٦.

أما المجوس في إيران و خراسان فلم يكن التدخل في شئونهم الدينية و لا في معابدهم و بنائها موضوع بحث أو تفكير لدى العباسيين، و كانوا رغم خسارتهم المستمرة في الأتباع نتيجة التحول للإسلام، يتابعون حياتهم المعتادة و تنظيماتهم الكهنوتية على الرسم الذي إعتادوه دوماً ، فكانوا يحدثون من بيوت نيرانهم و يجددون ما يشاؤون ، و يشير ابن حوقل إلى ذلك بقوله: (... إن بيوت نيران فارس كثيرة ... إذ ليس من بلدٍ و لا ناحيةٍ و لا رستاق* إلا بها عددٌ كبيرٌ من بيوت النيران)(١).

و عليه يمكننا القول، أن العلاقة بين الدولة العباسية و المؤسسات الخاصة بعبادة أهل الذمة، من كنائس و بيع و بيوت نيران و غيرها، كانت طيبة، رغم ما كان من تدابير عابرةٍ، سرعان ما تزول بزوال مسبباتها، و هي على كل حالٍ تدابيرٌ وقائيةٌ دفاعيةٌ كان لا بد منها.

*رستاق: يعنون بالرستاق في بلاد فارس كل موضع فيه مزارع و قرى، و لا يقال ذلك للمدن كالبصرة و بغداد. ياقوت: معجم البلدان، ج ١ ص ٣٨.

(١) ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي(القرن العاشر الميلادي): كتاب صورة الرض، دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة، الطبعة(بدون)، ص ٢٤٢.

٤- الحياة العامة لأهل الذمة و جهودهم العلمية

(أ) حياة أهل الذمة العامة في الدولة العباسية:-

بالرغم من مما تذكره التواريخ المسيحية القديمة، عن الصورة القاتمة لأوضاع أهل الذمة تحت الحكم الإسلامي عامة، إلا أن المدقق في أوضاعهم في العصر العباسي الأول خاصة، يكشف عن صورةٍ مغايرةٍ تماماً لما يتذكرونه. فكان في حياتهم العامة من التعايش و الرعاية أكثر بكثير مما فيها من عواصف التضييق الطارئ الذي كانت له أسبابه و مبرراته المقنعة.

و إذا كان من الطبيعي في المجتمعات القائمة على أساس الدين، كما هو في الحكم العباسي الإسلامي، أن تكون القيمة الأولى هي القيمة الدينية، بحيث لا ينظر أهل الدين الحاكم إلى أصحاب الديانات المخالفة، إلا من خلال نظرة الاستعلاء، فإن هذه النظرة في العصر العباسي الأول، كانت في أبسط و أهون صورها(١).

و إذا كان أهل الذمة يمثلون كتلة كبيرةً من السكان، بصورةٍ عامةٍ في العصر العباسي، فإن هذه الكتلة في واقع الأمر، كانت تتابع حياتها العادية المألوفة في ظل الدولة دون عائق، فكانت تقيم صلواتها و تبني معابدها و تتبع رؤسائها الدينيين و تدفع لهم الأموال، و تخرج مواكبها في الأعياد و تحمل شعاراتها الدينية أمام كافة المسلمين دون عائقٍ أو مانع.

و يذكر لنا " شوقي ضيف " كثرة الرق في العصر العباسي، بسبب من يؤسرون في الحروب، و بسب انتشار تجارته، و كان الرقيق من أجناسٍ مختلفةٍ و ثقافاتٍ و دياناتٍ متنوعةٍ(٢).

---

(١) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٤٩.
(٢) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي- العصر العباسي الأول، ص ٥٧، ٥٨.

و كانت تجارة الرقيق يقوم بها في الغالب أهل الذمة و خاصة اليهود، و كان معظم الرقيق يبقون على دياناتهم السابقة مما يكون رافداً لزيادة أهل الذمة في المجتمع الإسلامي، و مما لا شك فيه أن لذلك تأثير واسع في ذلك العصر، امتدت أثاره إلى القصور العباسية ، فكان أكثر الخلفاء من أمهات غير عربيات ، فالمنصور أمه حبشية ، و الهادي و الرشيد أمهما الخيزران رومية و المأمون أمه مراجل فارسية و كذلك المعتصم أمه ماردة و أم الواثق قراطيس رومية(١).

و قد ازداد عدد الجواري في القصور منذ عهد المهدي، و كان منهن من يعلقن الصلبان في نحورهن و لم يستفز ذلك أحداً من الخلفاء أو رجال القصر.

و لم يكن العامة في المجتمع العباسي يري في شعائر الذميين التي يقومون بها أمام أعينهم نوعاً من التحدي للإسلام ، و لا يتعالون عليهم إلا في بعض أحوال التنافس و الخصومة.

بل كان أهل الذمة، والنصارى منهم خاصة يحتكرون المهن و المناصب الهامة، و يتمتعون بكافة نعم الحياة، بل و يحظون بنوع من التعظيم في قلوب العوام، و ذلك بشهادة " الجاحظ " الذي فسر ذلك بقوله: ".. و مما عظمهم في قلوب العوام و حببهم إلى الطغام*، أن منهم كتاب السلاطين و فراشي الملوك و أطباء الأشراف ، و العطارين و الصيارفة ...الخ"(٢).

و كان من المعتاد، أن يخرج النصارى في موكب كبير و بين أيديهم الصليب في أعياد الفصح*(٣)،كما كان بعض المسلمين يحتفظون بكثير من التكريم لبعض البطاركة و رجال الدين الذميين، و ربما ذلك بحكم التقاليد و الإيمان بالغيبيات، فقد كانت النذور أحياناً تأتي بعض البيع و الأديرة من بعض المسلمين.

---

(١) شوقي ضيف : المرجع السابق، ص ٥٨.
* الطغام: أوغاد الناس، الواحد و الجمع فيه سواء. مادة طغم، مختار الصحاح، الطبعة الخامسة، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ص ٣٧٥.
(٢) الجاحظ: المختار في الرد على النصارى، ص ٨٧.
* عيد الفصح: عيد ذكرى قيامة السيد المسيح في إعتقاد النصارى، ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج ٢ ص ١٥٠.
(٣) تريتون: أهل الذمة في الإسلام، ص ١١٦.

و لم يذكر المؤرخين مرةً واحدةً أن أحداً من الذمة قد اضطهد أو هضم حقه أو منع العدالة، أو أبيح ماله، أو منع من ممارسة شعائره الدينية، لمجرد إعتقاده بغير الإسلام.

بل كان الذميين يشاركون المجتمع العباسي في تكوينه الطبقي ، و في الفقر و الغنى على السواء، و كانت مشاركتهم للمسلمين في كافة المستويات.

و من أوضح الأمثلة على ذلك، ما أورده شوقي ضيف في تاريخ الأدب العربي، في الجزء الخاص بالعصر العباسي الأول، أن البساتين في ضواحي بغداد كانت تمتلئ بالحانات... و كانت الأديرة تقدم لروادها الخمر المعتقة، و قد تفنن الشعراء في وصفها و وصف دنانها و كئوسها و مجالسها و ندمانها و سقاتها، الذين كانوا عادةً من النصارى و المجوس و اليهود(١).

و كان أهل الذمة يخرجون مواسم الأعياد ، مشاركون المجتمع في لهوه و احتفالاته، و كانت الأعياد كثيرة، منها أعياد الإسلام و أعياد الفرس و أعياد النصارى،و كانت تأخذ شكل كرنفالات عظيمة، مثل عيد " السدق " و هو عيد مجوسي للنار ، و كانوا يوقدونها طوال الليل متغنين حولها و راقصين، و من أعيادهم عيد " هرمزد " إله الخير، و من أهم الأعياد عندهم عيد " النيروز " و هو عيد الربيع، كانوا من بعده يحتفلون بعيد " المهرجان (٢)"

أما أعياد النصارى فكانت كثيرةً أيضاً فمنها عيد الميلاد و عيد الفصح و عيد "دير الثعالب " في الجانب الغربي لبغداد، و عيد دير أشموني بقطربل* و منها عيد "الشعانين "* و كان عيداً قديماً للأشجار خاصة أشجار الزيتون، و كانت الجواري النصرانيات يحتفلون به في قصر الخلافة، فيروي أن الخليفة المأمون بين يديه عشرون وصيفة رومية أدرن الزنار حول أوساطهن و تزين بالديباج و علقن في صدورهن صلبان

---

(١) شوقي ضيف: تاريخ الأدب- العصر العباسي الأول، ص ٦٧ – ٦٩.
(٢) نفسه، ص ٧٠.
* قطربل: اسم قرية بين بغداد و عكبرا، ينسب إليها الخمر، ياقوت، ج ٤ ص ٣٧١.
* الشعانين: عيد مسيحي يقع يوم الأحد السابق لعيد الفصح، يحتفل به المسيحيون زاعمين دخول المسيح عليه السلام. ابن القيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج ٢ ص ١١٣.

الذهب و أمسكن في أيدهن بالخوص* و الزيتون[١]، هذا نموذج لحياة الذميين داخل القصور، فما بالك بحياتهم خارج القصور.

و كانت الأديرة تمثل بيئة المستعربين العلمية، و كانت تمارس نشاطها في حلقاتها العلمية في مدارس " جنديسابور"* القريبة من البصرة و في نصيبين و حران و الرها و أنطاكية و الإسكندرية، و كانت تغلب عليها جميعاً الثقافة اليونانية[٢]، كما كان يغلب عليها علماء السريان المسيحيين ، وقد صنفوا كثيراً من المصنفات و المؤلفات و نقلوا كتباً كثيرةً عن اليونانية.

أما إذا انتقلنا للحديث عن الضرائب التي كانت مفروضة على أهل الذمة، فلم تكن في الواقع أكثر مما كان مفروضاً عليهم في العهد البيزنطي أو الساساني[٣]،هذا فضلاً أن تملك المسلمين بعد القرن الأول للأراضي الخراجية لم يكن يحولها إلى أراضي عشرية، و لكن يبقي على خراجها الأول و يستوي عند ذلك في شدته و في خفضه المسلم و الذمي.

كما أن الطرق المستخدمة في الجباية لم تكن من ابتكار المسلمين أو الحكم الإسلامي، و لكنها هي نفسها الطرق الموروثة من قبل ، و كثيراً ما كانت أحكام الإسلام و أوامره تتدخل لتخفف من قسوة تلك الطرق، فيذكر " تريتون " [٤] أن نصاً وجد على بعض أوراق البردي باللغة اليونانية في مطلع القرن الثاني الهجري، إلى عمال الخراج في مصر يدعوهم إلى توخي العدالة و عدم المحاباة أو الظلم في الجباية، و أخذ المفروض من كل منهم بقدر طاقته. و مما ينبغي ذكره و ملاحظته أن إساءة استغلال السلطة من سمات الكثير من العمال، و كان يتعرض لذلك المسلمون و الذميون على السواء، بدليل أن ثورات مصر سنة ١٦٨هـ / ٧٨٤م و سنة ١٧٨هـ / ٧٩٤م و سنة ١٨٦هـ / ٨٠١م و سنة ١٩١هـ / ٨٠٦م، إنما قام بها عربٌ مسلمون نتيجة للتذمر من

---

* الخوص(مادة خوص): و رق النخل، مختار الصحاح، ص ١٩٤.

(١) شوقي ضيف: المرجع السابق، ص ٧٠.

* جنديسابور: مدينة بخوزستان، وهي مدينة خصبة واسعة الخير، بها النخل و الزرع و المياه، ياقوت: معجم البلدان، ص ١٧٠.

(٢) شوقي ضيف: تاريخ الأدب - العصر العباسي الأول، ص ١١٠.

(٣) فيليب حتى: تاريخ العرب (ترجمة المؤلف و زميليه أ. جرجي و ج. جبور)، ١٩٤٩م، ج ١ ص ١٧٠.

(٤) أهل الذمة في الإسلام: ص ١٦٣، ١٦٤.

جباية الخراج، و لم يكن الذميون يعيشون في معزلٍ أو انفصالٍ عن المجتمع الإسلامي، بل كانوا مندمجين فيه كل الاندماج(١)، و يشاركون المسلمين في تلك الثورات للتعبير عما يقع عليهم من ظلم.

مما سبق يمكن القول أن التعصب الديني لم يكن هو الأساس في العلاقة ما بين النظام العباسي في ذلك الوقت و بين أهل الذمة، و إنما كان التعايش و الرعاية هما الأساس في العلاقة، وخير شاهد على ذلك رسالةٌ معاصرة، ما تزال محفوظة بين رسائل البطريك النسطوري " طيماثاوس " وزعها بالسريانية على أتباعه في العراق و إيران يشيد فيها برعاية السلطات الإسلامية للدين المسيحي و لرجال الدين و مساعدتهم الكنائس و البيع(٢).

و كان لما شرعه الإسلام لأهل الذمة من حقوقٍ اجتماعية و حريةٍ دينية، كبير الأثر في اندماجهم في المجتمع العربي المسلم، و بذلك فتحت أبواب التعاون الوثيق على مصارعيها في جميع شئون الحياة(٣) ، و قد اقتبس العرب كثيراً من صور حياتهم في المطعم والملبس و بناء القصور و نظام الخدم والحشم، و كانوا يشاركونهم و يحتفلون معهم بأعيادهم كما أسلفنا.

و كان لكل ذلك تأثيره العميق في المجتمع، و هنالك كثيرٌ من النماذج مصورةٌ في كتب الأدب و شعر الشعراء(٤).

(١) الجاحظ: المختار في الرد على النصارى، ص ٨٩.
(٢) لهذا البطريك حوالي مائتي رسالة بقي منها حوالي الستين، و قد طبع منها براون BRAUN الجزء الأول بالسريانية و الفرنسية في باريس سنة ١٩١٤، نقلاً عن دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٥٨.
(٣) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الأول، ص٩٠.
(٤) نفسه، ص ٩٥.

(ب) الجهود العلمية لأهل الذمة:-

شارك أهل الذمة في المجتمع الإسلامي للدولة العباسية في عصرها الأول، في الحياة العامة و مارسوا العديد من الأنشطة، وكانت لهم جهودهم العلمية المقدرة. و قد استعان بهم ولاة الأمر في الوظائف المختلفة، و كان لجهودهم العلمية أثرها في دفع عجلة الحضارة الإسلامية، و يعكس لنا ذلك مدى ما تمتعوا به من حريةٍ فكريةٍ و تفاعل في المجتمع الإسلامي.

(١) الكتابة:-

تعتبر وظيفة الكتابة من الوظائف الهامة في الدولة الإسلامية، لتسجيل موارد الدولة و منصرفاتها و مكاتبة الزعماء و الحكام و تسجيل الجند و الخراج و الأرزاق ، و غير ذلك من المكاتبات الرسمية.

و قد استعان حكام الدولة الإسلامية على مر عصورها بأهل الذمة في هذه الوظيفة.

ففي الدولة الأموية، نجد أن " سرجون " الرومي كان كاتباً لمعاوية بن أبي سفيان، كما كان " ابن البطريك " كاتباً لسليمان بن عبد الملك(١)، و غير ذلك.

وقد ظلت سجلات الخراج في أيدي الدهانين م هم عمال الفرس الذين كان يستعين بهم ملوك الفرس في جمع الضرائب، و ذلك لخبرتهم في هذا المجال، و استمر الحال على هذا الوضع إلى أن أمر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين في العراق و في الشام و في مصر(٢).

و في العصر العباسي، كان لكل وزير كاتبٌ يعينونه، كما كان أيضاً لولاة الأقاليم و رجال الدولة كتاب.

---

(١) حسن علي حسن و التوم الطالب: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٣٤.
(٢) شوقي ضيف: تاريخ الأدب – العصر العباسي الأول، ص ١٩.

فكان عمرو بن مسعدة يكتب للمأمون، و كان يكتب ليحي بن خالد البرمكي عبد الله بن سوار بن ميمون وهكذا[١].

و كانت طائفة الكتاب تؤلف و حدة على رأسها الوزير، بل تتدرج في الرقي إلى الوزارة معتمدةً على كفايتها و بلاغتها. و كان أكثر هؤلاء الكتاب فرساً، و كان للكتاب لبسهم الخاص،[٢] و كان للكتاب أثرهم في نشر نوع من الثقافة خاص، و كانت معارفهم و دائرة اطلاعهم واسعة و شاملة ، لأنهم كانوا مضطرون لمعرفة أحوال الناس و الاجتماعية و تقاليدهم، و أن يعرفوا من اللغة و الأدب و علوم الدين و الفلسفة والجغرافيا و التاريخ طرقاً، لأن كثير من مواقفهم تحتاج إلى ذلك. و قد تعرض للوالي أو الخليفة مسائل من هذا القبيل يضطر الكاتب إزائها أن يكون ملماً بجميع ذلك، فكان للكتاب هم الذين يعرضون على الخلفاء ما يرد عليهم و يحررون ما يصدر منهم.

و لأهمية الكاتب و دوره فقد ألفت في ذلك الكتب ككتاب ابن قتيبة " أدب الكاتب"، الذي اهتم فيه بما يلزم الكاتب من لغةٍ و نحو و صرف و إملاء، كما ألف بعده أبو بكر الصولي كتاب " أدب الكاتب " و قد توسع فيه في مسائل لم يتعرض لها ابن قتيبة، فتكلم في حسن الخط و قبحه و الدواة و القلم و ما إليهما و ترتيب الكتاب و طيه و الدعاء في المكاتبات و الدواوين و تحويلها إلى العربية[٣].

و قد ساعد الكتاب على نشر الثقافة العامة وضموا إلى الآداب العربية الآداب الفارسية و غيرها، مما جعل بغداد أهم مركز للحضارة و الثقافة في العالم كله[٤].

(٢) الطب و التجيم:-

كان اهتمام العرب بالطب منذ وقتٍ مبكر ، و كان للعرب منذ الجاهلية أطباء و عرفوا فن التطبيب. و في العهد الأموي برز عدد من أهل الذمة في مجال الطب، فهم على سبيل المثال " ابن إثال " و أبو الحكم النصراني و سرجون اليهودي و غيرهم[٥].

---

(١) الجهشاري: الوزراء و الكتاب، ص ٢٤.
(٢) نفسه، ص ٤٠١، ٤٠٢.
(٣) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ١ ص ١٧٠.
(٤) نفسه، ص ١٧٤.
(٥) حسن علي حسن و التوم الطالب: تاريخ الحضارة العربية ، ص ١٣٤.

أمـا فـي العـصـر العباسي فقد كانت عـناية الخلفاء موجهـة إلى الطب و التنجيم ، و السبب فـي ذلـك الحاجة الماسة إلى ذلك، فالخليفة المنصور أحتاج إلى الطب لمعالجة ما ألم بـه من مرض، كما احتاج إلى التنجيم لاعتقاده أن من بين حركات النجوم و أوضاعها و بين ما يحدث في عالمنا من نحسٍ و سعدٍ علاقةً و ارتباط.

فمنذ ذلك الحين صار الطب مهنتين رسميتين يتولاهما رجال رسميون. و قد برع في مجال الطب العديد من أهل الذمـة، الذين عملوا في بلاط الخلفاء العباسيين و احتلوا أرفع المناصب. و كان من أبرزهم طبيب المنصور الخصيب النصراني ثم جورجيس ابن بختيشوع الذي عالج المنصـور من ألـم أصـاب معدتـه[1]،فكافأه المنصور و أكرمه غاية الإكرام و عندما مرض جورجيس سمح له الخليفة أن يعود لبلده مع أكبر الرعاية، بعد أن ترك تلميذه " عيسى بن شهلاثا " عند المنصور.

كمـا اتخذ المنصـور " نوبخت " الفارسي منجماً لـه، و لما ضـعف عين مكانه ابنه أبا سهل بن نوبخت، أما الخليفة المهدي فكان طبيبه عيسى الصيدلاني الملقب بأبي قريش، و كان " توفيل بن توما " رئيساً لمنجميه[2].

و مـن أشـهر الأطـباء أيضـاً جبريل بـن يختيشـوع الـذي عمـل فـي خدمـة الرشـيد وولديه الأمين و المامون[3].

و ممـا هوجديـر بالذكـر أن مهنة الطـب اشـترك فـيها الـيهود و النصـارى، فكـان القسس يعالجون المرضى، و كانت الأديرة مراكز للعلاج من الأمراض، و اشتهر بعضـها بالمياه الكبريتية[4] و كان يقصدها كثيرٌ من المرضى.

كمـا اهـتم بعـض أهـل الذمـة بـترجمة كتـب الطـب و الأدويـة، مـثل " يوحـنا ابـن ماسويه" المتوفي سنة ٢٤٣هـ / ٨٥٧م[5]، كما شارك في نقل بعض كتب الهند الطـبيـة

---

(١) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٥٢.
(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ١ ص ٢٧٣.
(٣) شاكر مصطفى: المرجع السابق، ص ١٣٥.
(٤) علي حسني الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، ص ١٠١.
(٥) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي- العصر العباسي الأول، ص ١١٢.

أطباء أمثال منكا و بازيكر و قلبرقل و سندباذ الذين جلبهم يحي بن خالد البرمكي، و كانوا يعملون في البيمارستان الكبير ببغداد[١]. و هنا يمكننا القول أنه كان في بغداد أطباء هنود يمثلون الطب الهندي، هذا بجانب ما يوجد من طب يوناني، و كان من أشهر الأطباء في عهد الرشيد صالح بن بهلة الهندي[٢].

و من المدارس الشهيرة آنذاك في مجال الطب مدرسة جنديسابور التي ظلت تؤدي عملها كما كانت في عهد الفرس، و ازداد اتصالها بقصور الخلفاء. حتى أن الخليفة الرشيد عمل بيمارستاناً على نمط بيمارستان جنديسابور و تقلد رئاسته أطباء جنديسابور و تلاميذهم[٣].

و قد اشتهر من مدرسة جنديسابور في العصر العباسي جورجيس بن بختيشوع طبيب المنصور و ابنه بختيشوع طبيب الرشيد و جبريل بن بختيشوع طبيب المأمون ، و كانوا كلهم نصارى نساطرة[٤].

أما مدرسة الإسكندرية فقد اتصل بها المسلمون منذ العهد الأموي. فنجد منهم "اصطفن " الإسكندراني الذي قام بترجمة بعض الكتب لخالد بن يزيد بن معاوية، و منهم " ابن أبجر " الذي أسلم على يد عمر بن عبد العزيز و صحبه و اعتمد عليه عمر في صناعة الطب[٥].

و في العصر العباسي، اشتهر في مجال الطب بديار مصر " بليطيان " و كان بطريكاً على الإسكندرية، و قد قام بمعالجة جارية مصرية للمنصور[٦].

و كثر الأطباء و المنجمون في بلاط المأمون بن هارون الرشيد، فكان من منجميه " حبش الحاسب " و عبد الله بن سهل و ابن نونجت، و محمد بن موسى الخوازمي و " ما شاء الله " اليهودي، و من أطبائه سهل بن سابور و يوحنا بن ماسويه

---

(١) شوقي ضيف: المرجع السابق، ص ١١٣.
(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ١ ص ٢٥٦.
(٣) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ٣٨٣.
(٤) أحمد أمين: المرجع السابق، ص ٢٥٦.
(٥) نفسه، ص ٢٦٢.
(٦) نفسه، ص ٢٦٢.

و جورجيس بن بختيشوع، و عيسى بن الحكم، و زكريا الطيفوري. و لما مات آلت الخلافة إلى المعتصم كان طبيبه " سلمويه " ثم يوحنا ين ماسويه(١).

فمن هذا نرى أن الطب و التنجيم أصبحا صناعتين تحميهما الخلافة، و كانت حاجتهم إليهما حاجة عملية، فأمر الطب ظاهر، و التاريخ مملوءٌ بالحكايات التي هرع فيها الخلفاء إلى المنجمين، فالمنصور استشار المنجمين في الوقت الذي يبدأ فيه بناء بغداد، و المهدي لما هم بالخروج إلى ماسبذان* استشار تيوفيل بن توما المنجم ، و المعتصم نصحه المنجمون ألا يغزو عمورية* إلا في أيام نضج التين و العنب، فلم يصغ لقولهم، و غزاها و فتحها، و في ذلك قال أبو تمام بائيته المشهورة " السيف أصدق أنباء من الكتب.."، و الواثق لما اشتد مرضه، احضر المنجمين، و كان من بينهم الحسن ابن سهل بن نوبخت فنظروا في مولده، فقدروا له أن يعيش خمسين سنة مستأنفة من ذلك اليوم، فلم يعش بعد قولهم إلا عشرة أيام(٢).

وقد كان علم النجوم يشمل ما نطلق عليه علم الهيئة الآن، و كذلك يشمل التغيرات التي تحدث في الأرض بسبب مواقع النجوم و تأثيرها. و الشغف بمعرفة أحكام النجوم هو الذي جذب الخلفاء أولاً إلى تشجيع هذا العلم، ثم تدرجوا منه إلى تشجيع الفلك الرياضي البحت.

و في عهد الخليفة المأمون رصدت الكواكب و أصلحت آلات الرصد. و يظهر أن هذين العلمين (الطب و النجوم) هما البابان اللذان أوصلا المسلمين إلى ساحة العلوم الفلسفية. حيث كان الطبيب و المنجم يلمان بكثير من المسائل الفلسفية. و تعد الفلسفة كوحدة فرعها الطب ، و الإلهيات ، و الحساب ، و المنطق ، و الموسيقى ، و الهندسة، و الهيئة. فالطبيب و المنجم يلمان – غالباً- بكل ذلك ثم يتبحران في الطب و التنجيم،

---

(١) أحمد امين ضحى الإسلام، ص ٢٧٢.

* ماسبذان: من كور الجبل، ابن خردازية: المسالك و الممالك، ص ٢٠. تبعد ستة مراحل من جسر النهروان و هي مدينة عظيمة واسعة بين جبال و شعاب و فيها عيون تجري وسط المدينة، وأهلها أخلاط من العرب العجم. ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ص ٣٦٩.

* عمورية: من بلاد الروم فتحها المعتصم سنة ٢٢٣هـ، و كانت من أعظم الفتوحن ياقوت، معجم البلدان ج ٤ ص ٥٨.

(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ص ٢٧٣.

و كانت رغبة الأطباء في إتقان فنونهم تحملهم على معرفة اللغات الأجنبية، و خاصة اليونانية، فإذا حذقوها أقبلوا على الكتب المؤلفة فيها من جميع فروع الفلسفة.

وقد نقل إلينا " ابن النديم " ثبتاً بأسماء الكتب التي يدرسها المتطببون، فإذا فيها طب و تشريح، و ما إلى ذلك ثم فيها منطق و أخلاق و بحث فيما وراء المادة.

و كان ممن يقرعون كتاب موضوعه: " ... أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفاً " (١). و من أجل هذا نرى أن كثراً من الأطباء و المنجمين الذين كان الخلفاء يمدونهم بالمال، عنوا بترجمة كتبٍ غير طبيةٍ و لا فلكية و أشرفوا على ترجمتها. فيروي أن " يوحنا بن ماسويه" الطبيب ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة، و كان له تصانيف جميلة، و كان يعقد مجلساً للنظر، و يجري فيه من كل نوع من العلوم القديمة بأحسن عبارة(٢). كما أن يوحنا بن البطريق الطبيب مولى المأمون كان أميناً على ترجمة الكتب الحكمية، حسن التأدية للمعني، ألكن اللسان في العربية، و كانت الفلسفة اغلب عليه من الطب(٣).

٣- الترجمة:-

في العصر العباسي أمعن المسلمون في الحضارة، و سادت العناصر غير العربية، فرأوا أن حياة الحضارة لابد أن تستند إلى العلم، فمالية الدولة تحتاج إلى حسابٍ دقيقٍ، و عيشة الحضارة تحتاج إلى أدويةٍ مركبة وعلاج مركب، و متى لجأ الناس إلى نوع أو نوعين من العلوم و أخذوا يعالجونه عن الأمم الأخرى دعاهم الشغف إلى التعرف إلى ما عند الأمم المختلفة من العلوم جميعها و لو لم يكن لهم بها حاجة ماسة مباشرة.

كما أن لانتشار الجدل و استخدام الفلسفة في الحجج ودفعها في العصر العباسي، تطلب ترجمة كتب الفلسفة إلى العربية و معرفة ما بها، إلى أن شملت الترجمة مختلف العلوم و الفنون(٤). و قد ساهم أهل الذمة في تنشيط الحركة العلمية، خاصة في مجال

---

(١) ابن النديم: الفهرست، ص ٢٨٩.
(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ١ ص ٢٧٤،
(٣) نفسه، ص ٢٧٤.
(٤) نفسه، ص ٢٦٦.

الترجمة، نظراً لتشجيع الخلفاء لنقل التراث اليوناني و الهندي و الفارسي إلى اللغة العربية، و الاستفادة من ثقافات الأمم السابقة.

و قد أنفقت الأموال الكثيرة على المترجمين الذين كانوا من أهل الذمة، تشجيعاً لهم و دفعاً لهم لاستخراج المعارف و ترجمة القواعد والقوانين في شتى أنواع العلوم والمعارف.

بدأت أول محاولة للنقل و الترجمة في العهد الأموي بفضل خالد بن يزيد ابن معاوية، و الذي نقل له " اصطفن " و هو من الإسكندرية، و كان هذا النقل من اللغة اليونانية و القبطية إلى العربية. و كان خالداً يهتم بعلم الصنعة أو الكيمياء، و الغرض منها تحويل المعادن إلى ذهب، كما اشتغل خالد بالنجوم علها تساعده في الوصول إلى "الصنعة ".

إذن يمكننا القول أن محاولات الترجمة في العهد الأموي كانت فردية، تموت بموت الأفراد القائمين بها، و كانت مقصورة على العلوم العلمية كالصنعة و الطب و ذلك لحاجة الناس إليه، و قد أجاز الترجمة في الطب عمر بن عبد العزيز أتقى بني أمية(١).

و من الذين برزوا في مجال الترجمة في العهد الأموي " سويرس سيبوخت" أسقف دير قنسرين*، كما برز يعقوب الرهاوي و له مصنفٌ في النحو السرياني(٢).

أما في العصر العباسي فقد اتسعت حركة الترجمة، و صارت الترجمة عمل لا عمل أفراد، و كانت لها مدارس في جنديسابور و حران و غيرها، لا يضيرها موت فردٍ أو أفراد منها. كما شملت الترجمة علوماً أخرى بجانب الصنعة و الطب و النجوم كالمنطق و الفلسفة و الهندسة و غير ذلك(٣).

---

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ١ ص ٢٧٠، ٢٧١.
* قنسرين: كورة بالشام منها حلب، و كانت قنسرين مدينة بينها و بين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواص، و البعض يدخل قنسرين في العواصم، ياقوت، ج ٤ ص ٤٠٤.
(٢) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي- العصر العباسي الأول، ص ١٠٩- ١١٢.
(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج ١ ص ٤١٥، ٤١٦.

و إذا تتبعنا حركة الترجمة من خلافة المنصور إلى آخر عهد الرشيد أي من (١٣٦هـ / ٧٥٣م حتى ٨٠٨م)، نجد أنه ترجم في هذه الفترة (كليلة ودمنة) من الفارسية، و " السند هند" من الهندية ، وترجمت بعض كتب ارسطوطاليس في المنطق و غيرها، و ترجم كتاب " المجسطي " في الفلك.

و كان من أشهر المترجمين في هذا الدور ابن المقفع ، و جورجيس بن جبريل و يوحنا بن ماسويه. و في هذه الفترة اتصلت " المعتزلة " بالكتب التي ترجمت فعرفوا أرسطو و بعض كتب الفلسفة، و لذا تأثر أبحاثهم بالمنطق(١).

كما قام حنين بن اسحق الذي كان يجيد اللغتين اليونانية و العربية بترجمة العديد من الكتب الهامة إلى العربية مثل كتاب " إقليدس " و كتاب " المجسطي" و مؤلفات أفلاطون و غيرها كما ترجم أبو يحي البطريك المتوفى سنة ١٨٠هـ / ٧٩٦م كتب الطب اليونانية خاصة كتب " أبو قراط و جالينوس"(٢).

و مما يروى أن الخليفة المنصور (١٣٥هـ / ٧٥٤م – ١٥٨هـ ٧٥٥م)، طلب من الإمبراطور البيزنطي أن يرسل إليه مخطوطات في العلوم الرياضية، و قد مكث حنين بن اسحق أحد أكابر المترجمين من اليونانية إلى السريانية نحو سنتين في بيزنطة و تعلم اليونانية وآدابها و رجع بمخطوطات منها(٣). كما أقام " تيوفيلوس " الرهاوي في قصر المهدي، و ترجم الإلياذة و الأودسة إلى اللغة السريانية(٤).

و في عصر المنصور سنة ١٥٦هـ / ٧٧٣م، قدم رجلٌ من الهند عالمٌ بالحساب المعروف " بالسند هند " في حركات النجوم، فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب إلى اللغة العربية، و أن يؤلف منه كتباً تتخذه العرب أصلاً في حركات الكواكب، فتولى ذلك محمد بن إبراهيم الفزاري، فكان أهل ذلك الزمان يعملون به إلى أيام الخليفة المأمون(٥).

---

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ١ ص ٢٦٤.
(٢)شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي- العصر العباسي الأول، ص ١١٢.
(٣) بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٥٤، ٥٥.
(٤) نفسه، ص ٥٤.
(٥) أحمد أمين: المرجع السابق، ص ٢٧٠.

وقد نشطت الترجمة في عهد الرشيد ووزرائه البرامكة نشاطاً واسعاً و كان لدار الحكمة دورها الهام في ذلك. و كان يقوم بالترجمة فيها طائفة من المترجمين الذين جلبت لهم الكتب من بلاد الروم، و كان على رأس هذا العمل الضخم يوحنا بن ماسويه، كما كان للطبيب جبريل بن بختيشوع دوره في الترجمة ، إذ تضاف إليه كتبٌ مختلفة في الطب و كتاب المدخل إلى صناعة المنطق(١).

أما في عهد المأمون، فقد أسهم، في ترجمة التراث الفارسي آل نوبخت و على رأسهم الفضل بن نوبخت الذي أكثر من ترجمة كتب الفلك، آل سهل و على رأسهم الفضل بن سهل الذي كان يترجم للمأمون بعض الكتب الفارسية و كان المامون يعجب بترجمته، و من المترجمين أيضاً محمد بن جهم البرمكي و زادويه بن شاهويه و بهرام ابن مردانشاه و موسى بن عيسى الكسروي و عمر بن الفرخان و سلم صاحب خزانة الحكمة، و سهل بن هارون أحد خزنتها المشهورين، و بلغت الترجمة أبعد غاياتها في عهد المأمون(٢)،حيث أن بدأت الترجمة على نطاقٍ واسع، حيث أوفد المسيحيين إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية للبحث عن الكتب الجديدة، وقاموا بترجمتها و أجزلت لهم العطايا(٣).

و كان من أشهر المترجمين في عهد المأمون أيضاً يوحنا البطريك – مولى المأمون- و كانت الفلسفة أغلب عليه من الطب و قد ترجم كثيراً كتب أرسطو، و من المترجمين الحجاج بن مطر الوراق الكوفي، و قسطا بن لوقا البعلبكي و عبد المسيح ابن ناعمة الحمصي و حنين بن اسحق و ابنه اسحق و قد عني بكتب الفلسفة عناية أبيه بالطب، و ثابت بن قرة و حبيش الأعسم ابن اخت حنين و غيرهم(٤).

و قد ترجم في تلك الفترة أهم الكتب اليونانية في كل فن، فأعيدت ترجمة "المجسطي" و الحكمة الذهبية لفيثاغورس و جملة مصنفات لأبي قراط و جالينوس و كتاب طيماوس لأفلاطون و كتاب السياسة المدنية لأفلاطون و كتاب النواميس له

---

(١) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي- العصر العباسي الأول – ص ١١٢.
(٢) نفسه، ص ١١٣.
(٣) هل: الحضارة العربية، (ترجمة إبراهيم أحمد العدوي)، كتاب الهلال، العدد ٣٤٢ يونيو ١٩٧٩م ج.م.ع.، ص ١٢٠.
(٤) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ١ ص ٢٦٤.

أيضاً، و كتاب المقولات لأرسطو. و كان كل ذلك الجهد تم على يد حنين بن اسحق و مدرسته، كما ترجمت أغلب كتب أرسطو على يد ابنه اسحق(١). و حنين بن اسحق عند اتصاله لأول مرةٍ بالخليفة المأمون عينه في بيت الحكمة الذي كان يذخر بالكتب اليونانية التي نقلت من آسيا الصغرى، و من القسطنطينية. فأخذ حنين يترجم منها إلى السريانية أولاً ثم إلى العربية، ثم واصل ترجمته من بعد للمعتصم و الواثق و المتوكل.

و لم يكتف بما جمع من بيت الحكمة، بل رحل نواحي العراق و سافر إلى الشام و الإسكندرية و بلاد الروم يجمع الكتب النادرة. و مات حنين بن اسحق سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٧م بعد أن عمر نحو سبعين عاماً، بذل فيها من الجهد العلمي ما لا يستطيع غيره أن ينهض به في مئات السنين.

و كان حنين بن اسحق يترجم بنفسه و يشرف على جماعات تعمل بارشاده، فقد جعل له الخليفة المتوكل كتاباً نحارير عالمين بالترجمة، فكانوا يترجمون و كان يتصفح ما ترجموا(٢)، فكان يترجم كثيراً، وكان يؤلف كثيراً و كان أحياناً يضع الشرح لما ترجم، و يلخص المطولات و يصحح تراجم السابقين، و على الجملة كان حركة علمية دائمة قل أن تبارى، بل ظلت حركته التي أنشأها تعمل عمله بعد وفاته على يد ولديه و تلاميذه(٣).

---

(١) أحمد أمين: المرجع السابق، ص ٢٦٤.
(٢) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٧١.
(٣) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ١ ص ٢٧٤.

الفصل الرابع

الجدل الديني مع أهل الذمة و قضايا الاضطهاد

١- الجدل الديني مع أهل الذمة

٢- اتصال أهل الذمة بالدول المجاورة

و أثر ذلك في علاقتهم بالدولة العباسية

٣- قضايا الاضطهاد و أسبابها

١- الجدل الديني مع أهل الذمة

عندما فتح المسلمون البلاد، كالشام والعراق و مصر، كانت مملوءة بأهل الديانات الأخرى، من نصرانية و يهودية و مجوسية و غيرها.

و من أهل تلك البلاد من احتفظ بدينه و بقي عليه و منهم من دخل في دين الإسلام. و كان من هؤلاء و هؤلاء مثقفون بثقافاتٍ شتى، فلما هدأت الحرب بالسيف بدأت الخصومة باللسان.

فكان المسلمون في دعوتهم إلى الإسلام ، يضطرهم ذلك إلى ذكر الحجج و البراهين على صحة دينهم الإسلام لإقناع أهل الديانات الأخرى . و كان رؤساء و زعماء الدينات الأخرى يقابلون الحجج بالحجج و البراهين بالبراهين، فنشأ من هذا جدلٌ كثيرٌ[١]، و كثر في الدولة الأموية، و أكثر ما كان فيها في الشام التي كانت تعج بالنصارى، وذلك لأنها كانت في يد الرومان النصارى، هذا فضلاً عمن كان من النصارى في قصور بني أمية، أذ كانوا يتولون منصب رفيعة.

و لقيام المساجد بجانب الكنائس، سرعان ما كان الاحتكاك بين الإسلام و النصرانية، وكان بينهم جدالٌ و حوارٌ و خصومة، و قد سبب هذا الاحتكاك ظهور الكلام في القضاء و القدر أو الجبر و الاختيار، و الكلام في صفات الله عز وجل، هل هي عين الذات أو غيرها، و لعل هذا هو الأساس الأول لعلم الكلام في الإسلام[٢]. فكان الجدال بين المسلمين و النصارى يضطر كلاً لقراءة كتب الآخر، ليستعين بها على تأليف حججه و الرد على خصمه[٣].

فنجد مثلاً يحي الدمشقي، الذي كان شديد التمسك بنصرانيته، يعمل هو و أبوه في قصر الخليفة عبد الملك بن مروان، يؤلف كتاباً يدفع به دعوة المسلمين و حججهم،

(١) ماري بن سليمان: أخبار البطاركة، ص ٧٠، ٧١.
(٢) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ١٨٩.
(٣) ابن المرتضى: طبقات المعتزلة، ص ١٢٣.

و من أمثلة ما جاء في ذلك الكتاب، " .. إذا قال لك العربي، ما تقول في المسيح؟ قل له: إنه كلمة الله، ثم ليسأل النصراني المسلم، بما سمي المسيح في القرآن؟ و ليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم، فإنه سيضطر إلى أن يقول: كلمة الله ألقاها إلى مريم و روح منه. فإن أجاب بذلك، فأسأله :هل كلمة الله مخلوقة أم غير مخلوقة؟ فإن قال مخلوقة، فليرد عليه، بأن الله إذن كان و لم تكن له كلمة و لا روح"، قال يحي فإن قلت ذلك فستفحم العربي، لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين[١]. و المسلمون ردوا على هذا الاعتراض، بأن المراد بالكلمة، وجد بكلمة و أمره من غير واسطة، كما قال تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)[٢]. و أمّا الروح فتستعمل بمعنى الرحمة، كقوله تعالى: (... وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) [٣].

و نجد في الفرق الإسلامية ظلاً للتعاليم النصرانية، فقد تجادلت الكنائس النصرانية مثلاً في خلود العزاب، وذهب آباء الكنيسة اليونانية إلى إنكار أبدية العزاب في النار، و رأينا جهم بن صفوان* يقول: إن الجنة و النار يفنيان و يفنى أهلهما[٤].

و استمر الجدل بين المسلمين و النصارى في العصر العباسي، و قد حكت لنا الكتب عن ذلك الشيء الكثير، كرسالة الجاحظ في الرد على النصارى، فهي تصور لنا ما كان يثيره النصارى و اليهود من شبهات، و ما كان يدفع به المسلمون تلك الشبهات. كما تذكر لنا طرفاً من أخبار اليهود و النصارى، و السبب الذي كان من أجله العداوة بين المسلمين و اليهود.

و مما ورد إلينا أن عبد الله بن إسماعيل الهاشمي كتب رسالة إلى عبد المسيح اسحق الكندي يدعوه فيها إلى الإسلام، فرد عليه عبد المسيح يدعوه إلى النصرانية، و كان ذلك في عهد المأمون[١].

---

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ١ ص ٣٤٤.
(٢) سورة آل عمران : آية ٥٩.
(٣) سورة المجادلة: آية ٢٢.
* جهم بن صفوان: من موالي بني راسب، رأس الجهمية، هلك في زمان صغار التابعين، قبض عليه نصر بن سيار و أمر بقتله فقتل سنة ١٢٨هـ / ٧٤٥م. الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١ ص ٤٤.
(٤) الشهرستاني: الملل و النحل، ج ١ ص ٩٩.

كما حكى لنا " الجاحظ" جدلاً كان بينه و بين النصارى في القرابين و الذبائح، إلى كثير من أمثال ذلك(٢).

و كان ذلك الجدل، يدل على معرفة اليهود و النصارى لكتب المسلمين، حيث كانوا يأخذون حججهم منها، كما كان المسلمون يعرفون كتب اليهود و النصارى كذلك(٣).

فكان نتيجة للحرية المتاحة في العصر العباسي الأول، لأهل الأديان المختلفة، ظهر منهم دعاةٌ يدعون إلى ثنوية* الفرس و مانوية الفرس ، و بعض تعاليم اليهودية و النصرانية، و تعاليم الهنود الأقدمين، و بعض هؤلاء الدعاة تستروا بالإسلام و بعضهم دعا بدعوته في علانيةٍ، و أبيح الجدل و المناظرة في أدق المسائل و أعمقها (٤).. و كان هؤلاء جميعاً من ثنويةٍ و يهودٍ و نصارى قد تسلحوا بالفلسفة اليونانية، مستخدمين منطقها لتكوين براهين على مذاهبهم، كما استخدموا اللاهوت اليوناني يدعمون به معتقداتهم، فكان لا بد لمن يقنعهم و يرد عليهم أن يتسلح بأسلحتهم، و أن يكون على معرفة تامة بأساليبهم و أسرار مذاهبهم، ليقرع حجةٍ عقلية بحجةٍ عقلية، و يحمي المسلمين من هجومهم و بث دعواهم، فلم يقم بهذه المهمة ، و تحمل العبء في ذلك العصر إلا المعتزلة فقد نازلوا الثنوية و الديصانية و الدهرية*،و ألفوا الكتب المثيرة في الرد عليهم، كما نازلوا اليهود و النصارى و ردوا عليهم. و مما يجب ذكره، أن النصرانية كانت مقسمة إلى جملة طوائف، أشهرها في الشرق ثلاثة:-

١- اليعاقبة و كانوا ينتشرون في مصر و بلاد النوبة و الحبشة.

٢- النساطرة و كانوا في الموصل و العراق و بلاد فارس.

٣- الملكانية و كانوا ينتشرون في بلاد المغرب و صقلية و الأندلس و الشام.

---

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ١ ص ٣٤٤.

(٢) الجاحظ: الحيوان، ج ٤ ص ١٣٨ و ما بعدها.

(٣) أحمد أمين: المرجع السابق، ص ٣٤٧.

* الثنوية: هم أصحاب الاثنين الأزليين، يزعمون أن النور و الظلمة أزليان قديمان يختلفان بخلاف المجوس،فإنهم قالوا بحدوث الظلام، و هؤلاء قالوا بتساويهما في القدم و اختلافهما في الجوهر و الطبع و الخير و المكان و الأجناس و الأبدان و الأرواح . الشهرستاني: المرجع السابق، ص ١٩.

(٤) أحمد أمين: ضحى الإسلام، ج ٣ ص ٢٠٥.

* الدهرية: هم الملحدون الذين لا يؤمنون بالآخرة و القائلون ببقاء الدهر. الشهرستاني: الملل و النحل، ج ١ ص ١٩.

و كان من بين هذه المذاهب جدلٌ في العقائد الدينية، فاليعاقبة كانوا يرون أن المسيح هو الله، و أن الله و المسيح إتحدا في طبيعةٍ واحدةٍ هي المسيح. أما الملكانية و النساطرة فقالوا أن للمسيح طبيعتين متميزتين، و إن اختلفت الطائفتان فيما عدا ذلك في التفاصيل.(١)

و عندما سيطر الإسلام على تلك المناطق التي يسكنها أهل الديانات المختلفة له، عقد معهم الذمة بتعهدهم بدفع الجزية، و في ذلك يقول المستشرق " آلارد "(٢)، في مقال كتبه بمناسبة مرور ألف و مائتي عام على إنشاء مدينة بغداد، " رغم هذه الصعوبات التي قد تصل أحياناً درجة الكره، و الاضطهاد، فإنا نستطيع القول أن المسيحيين في بغداد كانوا يتمتعون تحت الحكم العباسي بأوضاع أكثر ارتياحاً و اطمئناناً بكثيرٍ من أوضاع بعض الفرق الإسلامية، و بخاصة الشيعة .... و أحد الأدلة على هذا الجو المسالم نسبياً، تلك الوفرة في أدب الجدل. إنك لا تتناقش مع عدوٍ متحفزٌ لتدميرك". فما ذكره " آلارد" يدل دلالة واضحةً على ما يتمتع به أهل الذمة من معاملةٍ حسنة، ارتقت إلى درجة المجادلة مع المسلمين ، و كانت تلك المناقشات الجدلية يوسع لها الخلفاء من وقتهم و يفسحون لها في بلاطهم، مما يدل على سعة الصدر التي كانت متوفرة آنذاك.

و يذكر لنا المؤرخون النصارى عن الخليفة المهدي، أنه استقدم في مطلع عهده المرشحين لكرسي البطريركية و ناقشهما في الدين، و سألهما عن عصا موسى من أي خشبٍ صنعت؟ و عن عصا هارون... ثم عرض عليهما الإسلام ... و لم يتأثر لرفضهما دعوته، بل اختار أحدهما بطريكا!(٣)

و في الأثر الأدبي الذي تركه " طيماثاوس" بطريك النساطرة في تلك الفترة، رسالة مطولة نشرها بالسريالية على رجال كنيسةٍ في العراق و خراسان و ما وراء النهر، يروي فيها المناقشة التي دارت بينه و بين الخليفة المهدي في المسيحية و الجدل فيها.و قد صارت هذه الرسالة فيما بعد مادة تعليم و توجيهٍ للنساطرة و اليعاقبة على السواء.

---

(١) الشهرستاني: نفسه، ص ٢٦٦ – ٢٧٠، ٢٧١.
(٢) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٧٨، نقلاً عن مجلة
Arabica Tome Ix, Oct. 1962, Volume Special, P.P 375- 388.
(٣) ماري بن سليمان: أخبار البطاركة، ص ٧٠، ٧١.

وقد ترجمت هذه الرسالة إلى العربية و منها نسخٌ عديدة مخطوطة، و هي مدحٌ في الديانة المسيحية مطولٌ و معللٌ في شكل مناقشة[(١)]، كما كتب مؤرخ نسطوري يقول: " و كان طيماثاوس مكرماً عند الخلفاء لكثرة علمه و حسن أجوبته عن المسائل التي كانوا يرمون عليه و يصادرونه بها في الدين و الاعتقاد و غير ذلك. و كان الخليفة الهادي كثيراً ما كان يستدعيه و يحاوره في الدين و يطرح عليه كثيراً من المسائل المشكلات". و كان يجيب عليه بأجوبةٍ قاطعةٍ و مسكتة[(٢)].. و كان كذلك مع الرشيد – و من جملة ما جرى معه ذات يومٍ عند انقضاء المجلس، أنه قال له: " يا أبا النصارى، أجبني باختصار: أي الأديان عند الله أحق؟ فقال الدين الذي شرائعه و وصاياه تشاكل أفعال الله في خلقه". فأمسك عنه، فلما انقضى المجلس، قال الرشيد: لو قال النصرانية لأسأت إليه و لكنه أجاب جواباً كلياً لا دفع فيه، و أضمر في نفسه دينه.[(٣)]

و مما يصور لنا ما يدور من جدلٍ بين المسلمين و أهل الذمة، ما يرويه لنا الخطيب البغدادي من تلك القصة[(٤)]، و هي أن أحد اليهود انتصر على عامة المتكلمين في البصرة، ثم جاء أبو الهذيل العلاف* فجادله فلم يتمكن اليهودي منه، فقام فأسر في أذنه شتيمة لـه و لمن علمه و لكن العلاف لم يثر، بل وقف بين الحاضرين موضحاً عجز اليهودي من الرد عليه، و أنه شتمه و شتم من علمه، لظنه أن " العلاف " سيثور و يثب عليه، فيدعي بعد ذلك اليهودي أن " العلاف " واثبه و شغب عليه. و بذا خرج اليهودي من البصرة بعد انقطاعه عن المجادلة.

و إذا كان معروفاً أن الجدل بلغ قمته في عهد المأمون، فإن أهل الذمة كان لهم منه النصيب الأوفى. فنجد أن " حبيب بن بهريز " مطران الموصل يفسر للمأمون عدة كتب، كما كان يقوم بهذه المهمة أيضاً " الحجاج بن مطر " و أيوب بن القاسم الرومي و يوحنا بن البطريق و غيرهم[(٥)]، وذلك للاطلاع على حجج ومسائل النصارى.

---

(١) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٧٨، نقلا عن: رسائل " طيماثاوس" الجزء الأول، الذي نشره بالفرنسية BRAUN في باريس سنة ١٩٦٤.
(٢) عمرو بن متى: أخبار بطاركة كرسي المشرق، ص ٦٥.
(٣) نفسه، ٦٥، ٦٦.
(٤) الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) : تاريخ بغداد، ط. القاهرة ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م، ج ٣ ص ٣٦٨.
* أبو الهذيل العلاف، محمد بن عبد الله بن مكحول العبدي، من أئمة المعتزلة، توفى بسامراء سنة ٢٣٥ هـ / ٨٥٠م. الشهرستاني: الملل و النحل، الهامش ص ٤١.
(٥) ابن النديم: الفهرست، ص ٢٤٤.

كما نجد أن المأمون استقدم " يزدان بخت " رئيس المانوية بعد أن أمّنه ليجادله، فيقطعه المتكلمون. و يقول له المأمون: أسلم يا يزدان، فلولا ما أعطيناك من الأمان لكان لنا و لك شأن. فيقول: نصيحتك مقبولة و لكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم، و يقبل المأمون منه ذلك. بل يوكل به حفظة خوفاً عليه من الغوغاء(١).

و لعلنا لا نحتاج للتذكير بالمجالس المختلفة التي كان يقودها المأمون للجدل ، و يكفي أنه كان من اهتمامه بالجدل مع المانوية و النصارى أنه وضع كتاباً في الرد على الأولى، و وضع كتاباً أيضاً في الرد على النصارى(٢).

و مهما يكن الأمر، فقد شارك كثيرٌ من علماء المسلمين في الجدل مع الذميين. فقد كتب واصل بن عطاء* كتاب " الألف " و فيه ألف مسألة في الرد على المانوية(٣). و لأبي الهذيل العلاف ستون كتاباً في الرد على المخالفين في دقيق الكلام و جليله(٤).

كما كان إبراهيم النظام* قد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة و خلط كلامهم بكلام المعتزلة(٥)، و نقل عنه تلاميذه ردوده، كما كتب زميلٌ له كان يناظره، هو أبو عبد الله الحسين بن النجار " كتاب الرد على الملحدين "(٦). كما كتب محمد بن شجاع الثلجي الذي وطد فقه أبي حنيفة و احتج له بالعلل و الحديث "كتاب الرد على المشبهة" و كتب أبو الربيع بن الليث كاتب يحي البرمكي كتاب " الرد على الزنادقة". كما كتب أبو محمد هشام بن الحكم – زمن الرشيد – كتاب الرد على الزنادقة و الرد على أصحاب الاثنين".

---

(١) ابن النديم: الفهرست، ص ٣٣٨.
(٢) ابن المرتضى، المهدي لدين الله أحمد بن يحي (٣٢٥هـ / ٩٣٦م): طبقات المعتزلة، بيروت، ١٩٦١، ص ١٢٣.
* واصل بن عطاء: رأس المعتزلة و من أئمة البلغاء و المتكلمين، سمي أصحابه بالمعتزلة لإعتزاله حلقة درس الحسن البصري، و هو الذي نشر مذهب الإعتزال في الآفاق، توفى سنة ١٣١هـ / ٧٤٨م. الشهرستاني: الملل النحل، الهامش، ج ١ ص ٤٢.
(٣) ابن المرتضى: المرجع السابق، ص ٣٥.
(٤) نفسه، ص ٤٤.
* إبراهيم النظام: قال عنه الجاحظ: " الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجلٌ لا نظير له، فغن صح ذلك فأبو اسحق من أولئك" إنفرد بآراء خاصة تابعته فيها فرق من المعتزلة سميت بالنظامية نسبة إليه، ذكر أن له كتباً كثيرة في الفلسفة و الإعتزال، توفى سنة ٢٣١هـ / ٨٤٥م. الشهرستاني: الملل النحل، الهامش، ص ٤٢.
(٥) الشهرستاني: الملل النحل، ج ١ ص ٥٣، ٥٤.
(٦) ابن النديم: المرجع السابق، ص ١٧٩.

ثم اشترك الخليفة المأمون نفسه في المعركة بكتاب الرد على "المانوية"[١]. كما كتب الإمام أحمد بن حنبل، في أيام المأمون كتاب الرد على الزنادقة و الجهمية. و كتب القاسم بن إبراهيم الحسني في أيام المتوكل كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع، و ذلك بعد قرن من غياب ابن المقفع.

و هنا يمكننا القول أن معظم ما كتبه علماء الكلام و المعتزلة من الآراء و ما أثاروه من المسائل و الجدل، إنما هي أجوبة على المسائل التي كانت تطرح أكثر مما هو مبادهةٌ فكرية في ركوب مسائل اللاهوت، و إنما هي ردود على ما يثيره الخصوم من الذميين أكثر مما هو تطوعٌ للجدل.

و أيضا من الذين كتبوا في ذلك أبو عيسى الوراق* (٢٤٧هـ / ٨٦١م)، و قد كتب كتباً في الرد على الفرق الثلاث من النصارى، كما أن الجاحظ (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م) كتب كتاب حجج النصارى على المسلمين، ثم أتبعه كتاب الرد على النصارى، كما كتب أبو جعفر الإسكافي (٢٤٠هـ / ٨٥٥م) كتاباً في الرد على النصارى، و في نفس الموضوع كتب أبو عمر حفص الفرد*، كما كتب الفيلسوف الكندي (ت ٢٦٠هـ / ٨٧٣م) كتاباً ضد التثليث.

و لم يكن الجدل و الرد من جانبٍ واحدٍ، بل كان الذميون بدورهم يكتبون و يجادلون و يهاجمون، و قد بدأوا الكتابة في ذلك منذ العهد الأموي، فإن يوحنا الدمشقي المعروف (بفم الذهب) و الذي كان من أكبر مفكري المسيحية، و المتوفى في مطلع العصر العباسي، ترك بين مؤلفاته محاورة في رد مزاعم المانويين في شكل محاورةٍ بين مسيحي و مانوي، كما ترك مناقشة على الأسلوب نفسه بين مسلم و مسيحي[٢]. و كتب بعض

---

(١) ابن المرتضى: المرجع السابق، ص ١٢٣.

* أبو عيسى الوراق: له تصانيف على مذهب المعتزلة، ثم خلط و قال بالمنانية و نصر الثنوية و وضع لها الكتب يقوى مذهبها و يؤكد قولها، نفقته المعتزلة و طردته عنها توفى سنة (٢٤٧هـ / ٨٦١م). الشهرستاني: الملل النحل، ج ١ ص ٢١٦.

* أبو عمر حفص الفرد: قال عنه ابن النديم "من المجبرة و من أكابرهم، نظير النجار و كان من أهل مصر، قدم البصرة فسمع أبي الهزيل و اجتمع معه و ناظره فقطعه أبو الهزيل، و كان أولا معتزليا ثم فال نجلق الأفعال، له عدة كتب". و قال عنه الذهبي: مبتدع. وقال عنه النسائي: صاحب كلام، لكن لايكتب حديثه. و كفره الشافعي في مناظراته. الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١ ص ١٠٢.

(٢) إلياس الدبس: تاريخ سورية، المجلد الخامس، ج ٣ ص ٢٧.

الناس إلى الجاحظ في أيام المعتصم يستنجدون بمعرفته و بيانه في المسائل التي يثيرها النصارى.

فكتب رسالته المشهورة " الرد على النصارى" التي استهلها بقوله: "أما بعد، فقد قرأت كتابكم و فهمت ما ذكرتم فيه من مسائل النصارى قِبَلَكُمْ و ما دخل في قلوب أحداثكم و ضعفائكم من اللبس.."(١).

و يبدو أن النصارى كانوا أكثر جدلاً من اليهود والمجوس، حيث نلاحظ أن الجاحظ في رسالته يذكر: " .. على أن هذه الأمة لم تبتل باليهود و لا المجوس و لا الصابئين كما أبتليت بالنصارى، و ذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا و الضعيف بالإسناد من رواياتنا و المتشابه من كتابنا، ثم يخلون بضعفائنا و يسألون عنها عوامنا، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين و الزنادقة الملاعين(٢).

وقد اشتهر في هذه الفترة العباسية خاصة ثلاثة أسماء من الفرق النصرانية هم " طيماثاوس" البطريك النسطوري المتوفى سنة (٢٠٢هـ / ٨٢٣م)، " ثيودورس" أبو قرة أسقف حران الملكاني المتوفى (٢٠٩هـ / ٨٣٠م)، و " أبو راعطة" أسقف تكريت اليعقوبي المتوفى سنة (٢٢٠هـ / ٨٤٠م)، و كل واحد من هؤلاء كتب عدداً كتباً من الدينية بالعربية، كما أن كتبهم التي كتبوها بالسريانية أو اليونانية ترجمت على ما يبدو في وقت مبكر إلى العربية(٣).

و ثيودورس أبو قرة أسقف حران كان يتمتع بنشاطٍ واسع، و قد ناقش المسلمين و النساطرة و اليعاقبة و اليهود على السواء، و من بين كتبة كتاب " التثليث و وحدة الإله"، و كتاباً في الرد على من يزعمون أن كلام الله مخلوق. أما طيماثاوس فرسائله تزيد على المائتين، و الستون الباقية منها كلها في الدفاع عن المسيحية و المذهب النسطوري خاصة(٤).

---

(١) الجاحظ: المختار في الرد على النصارى، ص ٧٣.
(٢) نفسه، ص ٧٣.
(٣) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٨٢.
(٤) نفسه، ص ١٨٣.

و قام بالعمل نفسه (في أواخر القرن الثاني الهجري) أسقف صيدا، فقد كتب دفاعاً عن الدين المسيحي، و ما تزال مكتبة الفاتيكان تحتفظ بمخطوطةٍ من هذه الرسالة[١].

بهذا يمكننا القول، أن أهل الذمة لم يدخروا و سعاً في استخدام أقصى حريةٍ دينيةٍ ممنوحةٍ لهم للجدل مع المسلمين و مناظرتهم و التأليف ضدهم. و قد تمتعوا بحياةٍ أكثر تساهلاً، و وجدوا المجال مفتوحاً أمام مذاهبهم و قدراتهم العلمية ، بفضل تشجيع الخلفاء و تقديرهم للعلماء[٢]، بغض النظر عن مذاهبهم و معتقداتهم الدينية.

(١) إلياس الدبس: تاريخ سورية، ج ٣ ص ٢٧٠.
(٢) كامل سعفان: اليهود تاريخاً و عقيدةً، (كتاب الهلال)، العدد ٣٦٤، جمادي الأول ١٤٠١هـ ١٩٨١م، ص ٣٧.

٣- إتصال أهل الذمة بالدول المجاورة و أثر ذلك في علاقتهم بالدولة العباسية

كان يشوب العلاقة بين الدولة العباسية في عهدها الأول و بين أهل الذمة في المناطق المتاخمة لدولة الروم الريبة و عدم الاطمئنان، و يرجع ذلك لاتهام الدولة العباسية لأولئك السكان بعدم الولاء للدولة، و الإتصال بالروم المعادين للدولة العباسية، خاصة بعد أن أصبح أهل تلك المناطق ذمة يتبعون للدولة العباسية، بعد أن كانوا يتبعون لدولة الروم التي يتفق معها معظمهم في العقيدة.

فكانت معظم القرارات التي تصدر ضد أهل الذمة، تكون بتأثير من العلاقات بين الدولة الإسلامية و دولة الروم البيزنطية، فكان الروم يمدون نصارى جبل لبنان بالمساعدة و يحيكون الدسائس و يغزون الساحل السوري لتقويتهم، فقد دخل الروم طرابلس مرةً زمن المنصور.

كما رأينا من قبل فرار قائد ثورة جبل لبنان " بندار " إلى الروم، و كانت تلك الثورة قد استمدت سنداً قوياً من البيزنطيين[1]. و مثال ذلك ما أصدره الخليفة هارون الرشيد في سنة ١٩١هـ / ٨٠٦م من أمر بهدم الكنائس في الثغور، و مخالفة أهل الذمة في لباسهم و ركوبهم هيئة المسلمين[2]،فكان ذلك التصرف أثرٌ من آثار سوء العلاقات السياسية بين الدولتين، و لا يعتبر أثراً للتعاليم الدينية، و لذا كان الأمر مختصاً بكنائس الثغور و أهل الذمة في بغداد العاصمة دون سائر الجهات الأخرى.

---

(١) أنظر صفحة ٥٥ من هذا البحث.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ١٠ ص ١٠٠.

كما سبق أن ذكرنا أن وفداً من المسلمين جاء إلى الرشيد عندما كان في الرها، يتهم النصارى بالضلوع مع الروم و أن إمبراطور بيزنطة يأتي كل سنةٍ للصلاة في كنائس الرها(١).

و مما هو ملاحظ، أن الروم منذ ثورة " بابك الخرمي"*، اتبعوا طريقة جديدةً مع المسلمين، وهي التوسع و التجسس و التسلل بواسطة الأعوان إلى داخل الأراضي العباسية و إثارة القلاقل فيها، أو الضرب في بعض المناطق غير المتوقعة.

و من ذلك أيضاً تحريضهم الأرمن على الثورة سنة ٢٣٧هـ / ٨٥١م، مما كلف الخليفة المتوكل الكثير من الجهد و المال لإخمادها(٢). و لذا نجد أن الخليفة المتوكل تساوره الشكوك في علاقة الذمة بالدولة البيزنطية، فنجده يمتحن حنين بن اسحق و هو من كبار التراجمة، خوفاً أن يكون أحد جواسيس الروم المرسلين لدس السم له(٣).

أما علاقة بابك الخرمي مع الدولة البيزنطية فقد بدأت منذ عهد مؤسس الأسرة العمورية ميخائيل الثاني (٢٠٥هـ / ٨٢٠م ـ ٢١٤هـ / ٨٢٩م)، ثم خليفته تيوفيل (٢١٤ هـ / ٨٢٩م ـ ٢٢٨هـ / ٨٤٢م)، و لا شك أنه يهم هذين الإمبراطورين دعم مكانة أسرتهما بتدمير الخلافة العباسية بطريقةٍ لا تكلفهما الكثير. كما أن أصحاب بابك هرب بعضهم إلى بلاد الروم و صاروا حرباً معهم على المسلمين سنة ٢١٦هـ / ٨٣١م.

و قد كلفت هذه الحركة التي بدأت منذ عام ٢٠١هـ / ٨١٦م حتى عام ٢١٨هـ / ٨٣٣م، أربع حملاتٍ كبرى للمأمون، حتى دخل في نفوس القواد و الناس شئ من استفحال أمر بابك، و هذا ما جعل الخليفة المعتصم يطوف برأس بابك بعد هزيمته على

---

(١) تريتون :أهل الذمة في الإسلام، ص ١١٦.
* بابك الخرمي: غامض في نسبه، تنسب إليه الحركات البابكية و هي حركة دينية في الظاهر و سياسية في الواقع، تؤمن بالحلول و التناسخ و المشاعية المزدكية، أي المشاركة في المال و الحريم، و كانت غاية بابك السياسية التخلص من السلطان العربي و الدين الإسلامي و إقامة نظام سياسي مزدكي إيراني. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ٢ ص ٩١، ٩٢.
(٢) ابن العبري، أبو الفرج غريغورس بن هارون الملطي (٦٨٥هـ / ١٢٨٥م): تاريخ مختصر الدول، مطبعة بيروت، ١٩٥٨م، ص ١٤٢، ١٤٣.
(٣) نفسه، ص ١٤٤، ١٤٥.

مدن خراسان لإزالة ذلك الأثر المزيج من الإعجاب و الرهبة، لذا قوبل أمر أسره بالتهليل و التكبير لدى الناس في بغداد(١).

و كان بابك الخرمي يكاتب الروم و استنجد بهم، مما حفز "تيوفيل بن مخائيل" لدخول أرمينيا و فتح بلدة زبطرة* و سبى الذراري و النساء و أحرق البلدة، كما فعل الشئ نفسه في ملطية* حيث أغار عليها و على حصون المسلمين بها(٢).

و لكن هذه الغارات من قبل الروم و التي كانت بمثابة نجات لبابك و حركته، لم يستفد منها بابك لأنها جاءت متأخرة.

و عليه يمكننا القول أن تعاون الروم مع بابك غير متكافئ، فأقصى ما قدمه له الروم هو الضغط العسكري السياسي، بينما كانت حركة بابك الخرمية، يدخل أتباعها ضمن القوى العسكرية البيزنطية، حيث كانت جموعٌ كثيرةٌ منهم تهرب من المناطق التي يحتلها الجيش العباسي لتلتحق بالروم و تدخل في قواهم العسكرية.

فنجد أن ثورة بابك الخرمي قد تفاقم أمرها زمن المعتصم، و قد وجدت من كل من ملك أرمينيا و إمبراطور الدولة البيزنطية – مما ساعد على انتشار جيوش بابك و إدخال الرعب في نفوس أهالي البلاد الواقعة بين أذربيجان و إيران(٣).

كما ذكرنا من قبل فإن أهم مبادئ الخرمية، تتمثل في تحويل الملك من العرب المسلمين إلى الفرس المجوس، و العمل على هدم العقائد الإسلامية، بجانب مبادئهم التي تتعارض مع الإسلام(٤).

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، المجلد الخامس، ص ٢٣٣، ٢٣٤.
* زبطرة: مدينة بين ملطية و سمياط و الحدث في طريق بلد الروم. ياقوت: معجم البلدان، ج ٣ص ١٣٠، ١٣١.
*ملطية: بلدة من بلاد الروم و تتاخم الشام و هي للمسلمين. ياقوت: نفسه، ج ٥ ص ١٩٢.
(٢) الطبري: المرجع السابق، المجلد الخامس، ص ٢٣٥.
(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ٢ ص ٩٢.
(٤) نفسه، ص ٩٢، ٩٣.

و من القضايا الهامة أيضاً التي أقلقت بال المعتصم، بعد القضاء على ثورة بابك الخرمي، ثورة " الأفشين" التي دبرها مع " المازيار"، و قد انفرجت تلك الثورة سنة ١٦٤هـ / ٧٨٠م ، و جذورها ذات صبغة دينية سياسية، و سببها المباشر تلك السياسة المالية العباسية التي أخذ بها الناس والي طبرستان و جبى بها الضرائب.

فقامت الثورة من الأمراء و الدهاقين و الشعب على السواء[١]. و قد كلفت تلك الثورة الخلافة الكثير من المال و النفقات و الهزائم قبل أن تهدأ بعض الهدوء تحت ضغط القوى العسكرية الكثيفة. ثم عادت الثورة كرةً أخرى أشد و أقوى سنة ١٦٧هـ / ٧٨٣م في جرجان و طبرستان ، مما اضطر الخليفة المهدي أن يوجه جيشاً كثيفاً عهد به إلى ابنه و ولي عهده الهادي و يرافقه أبرز القواد و رجال البلاط العباسي. ولتبع العادي طريقة تأليف القلوب من جهة و الضرب العسكري من جهة أخرى[٢].

و في عهد الرشيد لم يعد ملوك المنطقة المحليين يشكلون خطراً كبيراً فأقروا في ممالكهم، بعد أن تولى أمور طبرستان ولاة و جباة أقوياء.

و في فترة النزاع بين الأمين و المأمون، قبل أهل المنطقة أوامر الأمين أولاً حيث سار إليهم قائده عيسى بن ما هان و كتب إليهم يعدهم بالصلات و الجوائز ويأمرهم أن يقطعوا طريق خراسان و يمنعوا من أراد الوصول للمأمون و قائده طاهر بن الحسين، فأجابوه إلى ذلك[٣].

و لهذا السبب ولى المأمون على طبرستان عبد الله بن خرداذبة فأفتتح سنة ٢٠١ هـ / ٨١٦م إمارة اللازر و الشيرز من بلاد الديلم و أقر الحكم العباسي في المنطقة من جديد[٤].

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، المجلد الخامس، ص ٢٤٨، ٢٤٩.
(٢) نفسه، ص ٢٦٤، ٢٦٥.
(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، المجلد الخامس، ص ٥١.
(٤) نفسه، ص ١٣٨.

٣- قضايا الاضطهاد و أسبابها

ما يذكر من صور الاضطهاد و القيود المفروضة على أهل المنطقة في العصر العباسي الأول، قد يساء فهمها إن لم تقرن بأسبابها. و تلك الأسباب لم يكن للتعصب الديني مكانٌ فيها و ربما يكون آخر تلك الأسباب أو ألحق بها فيما بعد. و في استعراضنا لتلك الأسباب و الأحداث و القضايا التي سجلت التميز و التضييق، أو ما يطلق عليه البعض الاضطهاد، يمكننا الكشف على أبعدها، مما يعطي النماذج الواقعية للسياسة الدينية العباسية مع أهل الذمة أكثر مما تكشفه لنا الأحكام العامة.

و هنا نورد خمس قضايا يمكنها أن تبين بوضوح سياسة الدولة العباسية في عهدها الأول تجاه أهل الذمة.

<u>أولاً: قضية الصابئة الحرانية:-</u>

يذكرمؤرخ نسطوري: "... و تناول الحرانيون (الصابئة) رجلاً على رسمهم (طريقتهم) ليجعلوه قرباناً ، و يقطعوا رأسه فأفلت . و خبر الرشيد بحالهم فأمر بقتلهم و استئصالهم و تفرقوا في البلاد.."[١]. و عندما مر المأمون بن هارون الرشيد بحران سنة ٢١٥هـ / ٨٣٠م، في طريقه إلى جبهة الروم وجدهم هناك، فخيرهم بين الإسلام أ و ديناً من الأديان التي ذكرها الله في كتابه، فتنصر بعضهم، و أسلمت منهم طائفة ، و قال بعضهم أنهم صابئة[٢].

ففي هذه القضية نجد أن الخليفة هارون الرشيد تصرف كحاكم دولة، و اتخذ ما يراه مناسباً لمنع قتل النفس البشرية التي حرم الله إلا بالحق، مستنكراً ما اختلقوه من دين يبرر لهم الفعل الشنيع الذي يتمثل في قطع رأس إنسان برئ لتقديمه قرباناً لزعمهم.

---

(١) ماري بن سليمان: أخبار البطاركة، ص ٧٥.

(٢) ابن النديم: الفهرست، ص ٣٢٠، ٣٢١.

أما الخليفة المأمون فكان تسامحه معهم واضحٌ، حيث خيرهم في إتباع أي دينٍ سماوي من الأديان، فلم يجبرهم إلى الإسلام وحده.

و على هذا، فإنه لا يوجد في هذه القضية ما يمكن أن يطلق عليه اسم تضييقٍ أو اضطهادٍ لأهل الذمة.

ثانياً: قضية النصارى العرب:-

و هذه القضية تتعلق بثلاث مجموعاتٍ عربيةٍ مسيحية:

١- **مجموعة النجرانية:** و هم من أهل نجران اليمن، الذين صالحهم رسول الله صلى الله عليه و سلم، على شروطٍ اشترطها عليهم و بعضها اشترطوها هم بأنفسهم، و كتب لهم بذلك كتاباً[١].

و في عهد خلافة عمر بن الخطاب، أجلاهم عمر عن نجران اليمن، و أسكنهم نجران العراق، و كان السبب في ذلك حسب تعدد الروايات:-

أن عمر رضي الله عنه خافهم على المسلمين، و كانوا قد اتخذوا الخيل و السلاح في بلادهم[٢].

و في روايةٍ أنهم أصابوا الربا و كثروا، فخافهم على الإسلام[٣].

و في روايةٍ أن عمر أجلاهم عملاً بحديث رسول الله صلى الله عليه و سلم "لا يبقيان دينان في جزيرة العرب". فأجلاهم إلى النجرانية بالكوفة و اشترى عقاراتهم و أموالهم[٤].

و في روايةٍ أخرى، أنهم طلبوا الجلاء بأنفسهم، فاستحسن ذلك عمر رضي الله عنه[٥]. و عليه فإن بعضاً منهم استقر في الكوفة بالعراق، و البعض الآخر استقر بالشام.

و كانوا ملتزمين آنذاك بخراج قدره مائتا حلةٍ و ثوب، و ذلك لأن عددهم تضاءل بدخول بعضهم في الإسلام. فلما مر هارون الرشيد بالكوفة، رفعوا إليه أمرهم، شاكين من تعنت العمال إياهم، فكتب الرشيد كتاباً بالمائتي حلة... و أمر أن يعفوا من معاملة العمال، أي الزيادات التي كانت تدفع أجوراً للعمال، و أن يدفعوا مباشرةً إلى بيت المال ببغداد.

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٧٥.
(٢) أبو يوسف: الخراج، ص ٧٤.
(٣) البلاذري: المرجع السابق، ص ٧٧.
(٤) نفسه، ص ٧٨.
(٥) نفسه، ص ٧٨.

ففي هذه القضية لا نجد إلا حسن المعاملة و الرفق بنصارى نجران، فقد خفف عنهم كثيراً. فقد صالحوا الرسول صلى الله عليه و سلم على ألفي حلةٍ في صفر و ألف حلةٍ في رجب، هذا غير الضيافة و ما اشترط عليهم[١]، فتناقص عدد ما صولحوا عليه إلى مائتي حلة، ما أمر الرشيد أن يعفوا من أجور العمال (عمال الخراج)، هذا فيما يتعلق بما فرض عليهم.

أما فيما يتعلق بجلائهم عن اليمن إلى العراق و الشام، فذلك بموجب ما أشترط عليهم ، أو ما طلبوه بأنفسهم حسب إختلاف الروايات[٢]. كما أن للحاكم نظرته فيما يقرره لمصلحة الإسلام و المسلمين.

و من هنا لا نجد في هذه القضية أيضاً ما نلمس فيه شيئاً من الاضطهاد.

٢ـ مجموعة تنوخ: و هم أخلاطٌ من العرب، كانت تنزل من قبل الإسلام في حاضرة "قنسرين" أي الريف البدوي في منطقة حلب، و قد بقي بعضهم على النصرانية حتى العصر العباسي.[٣]

يذكر المؤرخ السرياني، ميخائيل الكبير (البطريك)، أن المهدي هاله حين مر بحلب كثرة ما بها من النصارى خاصة من قبيلة تنوخ، فخيرهم بين الإسلام و الموت، فأسلم بعضهم، و أما من تمسك بدينه فقد قتلهم عن آخرهم[٤].

فلعل المؤرخ السرياني يخلط فيما يبدو بين عددٍ من الأخبار. فقد جمع المهدي حين نزل حلب سنة ١٦٣هـ / ١٧٩هـ الزنادقة و قتل جماعةٍ منهم[٥]،

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٧٥.
(٢) نفسه، ص ٧٨.
(٣) نفسه،ص ١٥١.
(٤) شاكر: مصطفى، دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٦٠ نقلاً عن تاريخ ميشيل السوري(الترجمة الفرنسية)، ص ٢٠٢.
(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، المجلد الرابع ص ٥٦٨.

كما كان في حلب و حران جماعة من الراوندية*[١]. فلعل بعض النصارى من تنوخ من هؤلاء الراوندية قتلوا في تلك الحملة على الزندقة، و لعل نقم المهدي على التوخيين بجانب أن منهم بعض الزنادقة، أنهم آووا "عبد السلام بن هاشم" الثائر الخارجي الذي خرج على الدولة و دوخ جيوش المهدي في الجزيرة ثم هرب، إلى قنسرين، فلعل المهدي إلى هذا و ذاك خشي من الزنادقة اضطراب ولانهم للدولة و ميلهم إلى الروم و هم في منطقة الثغور و العواصم المتاخمة لدولة الروم، فخيرهم بين الإسلام أو القتل لأنهم من العرب، و هكذا اسلم على يده جماعة و كتب على أيدهم بالخضرة قنسرين[٢]، و لكن لم يذكر أحدٌ من المؤرخين انه رافق ذلك قتل، و من الصعب أن تجري تلك المذبحة في صمتٍ و لا يذكرها أحد.

فلا شك أن الذين قتلوا من الزنادقة ، و لكن المورخ السرياني ربط بين القتل و الإسلام و جعل العملية الأولى سبباً للثانية.

٣- مجموعة تغلب: و هؤلاء من قبائل العرب في الجزيرة، كانوا على النصرانية قبل الإسلام، ثم أنهم بعد الفتح و ظهور الإسلام أنفوا من دفع الجزية أو ترك دينهم و الدخول في الإسلام، و هموا باللحاق بأرض الروم[٣]، فصالحهم الخليفة عمر بن الخطاب على دفع الصدقات مضاعفة[٤]، فاستمروا على الوضع الخاص حتى عهد الخليفة العباسي الرشيد، الذي ضاق بهم ذرعاً لكثرة معونتهم للخوارج بالجزيرة، كما اتهمهم بممالأة (مساعدة) الروم، فأراد نقض العهد الذي صالحهم عليه عمر بن الخطاب. و لكن قاضي قضائه محمد بن الحسن الشيباني، أوضح أنه لا سبيل إلى ذلك. فقال الرشيد: لقد صالحهم عمر على ألا يغمسوا أولادهم في المعمودية أي لا ينصرونهم، و قد فعلوا، فخرجوا بذلك عن العهد و نقضوه. فكان رد الشيباني: " لقد علم ذلك الصحابة و التابعون فلم يمنعونهم

*الراوندية: فرقة من الرافضة، زعموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم نص على العباس و نصبه إماما ، ثم نص العباس على إمامة ابنه عبد الله الذي نص على إمامة ابنه علي ثم ساقوا الإمامة إلى أبي جعفر المنصور. الأشعري مقالات الإسلاميين و اختلاف المصلين، ج ١ ص ٩٦.

(١) الطبري: المرجع السابق، ص ٥٦٨.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٥٠.

(٣) نفسه، ص ١٨٦.

(٤)أبو يوسف: الخراج، ص ١٢٠.

منه، و لم يجدوا أن ينقضوا العهد القديم معهم لأجله، و قد كشفت لك العلم، و رأيك أعلى[١].و هنا لم يستطع الرشيد أن يفعل شيئاً.

و هذا يؤكد لنا مدى احترام الرشيد لآراء الفقهاء و للعهود المبرمة، رغم محاولته أن يجد ما يسمح له بنقض ذلك العهد. و وضع بني تغلب الخاص هذا، خلق مشكلة من قبل واجهها الإمام علي بن أبي طالب، كما واجهها الخليفة عمر بن عبد العزيز[٢]، و لكنهم مع ذلك ظلوا يتمتعون بذلك الامتياز الخاص.

ثالثاً: أقباط مصر:

انتفض القبط أكثر من مرةٍ حتى أواخر عهد الخليفة المنصور، و كان ذلك الانتفاض و تلك الحركات ضد الظروف المالية السيئة، وضد قسوة الخراج، و قد حل محلهم في القيام بتلك الثورات العرب المسلمون الذين توطنوا في الدلتا لنفس الأسباب.كما قامت الثورات بعد ذلك سنة ١٦٨هـ / ٧٨٤م و ١٧٨هـ / ٧٩٤م و ١٨٦هـ / ٨٠١م و ١٩١هـ / ٨٠٧م و ١٩٨هـ / ٨١٣م. و في سنة ٢١٦هـ / ٨٣١م انتفضت الدلتا كلها عربها و قبطها، إلى أن جاء الخليفة المأمون إلى مصر، و أدرك بوصوله سبب الثورة، فعزل واليه على مصر علي بن عيسى بن منصور و أعوانه، متهماً إياهم بأنهم حملوا الناس ما لا يطيقون، و كتموه الأمر حتى اضطرب البلد[٣].

و تمكن المأمون من القضاء على الثورة ، و بطش بما قاموا بها من القبط و العرب[٤].

و يورد المقريزي[٥] أن القضاء على تلك الثورة أدى إلى نتائج هامة:-
انكسرت شوكة القبط فلم يخرجوا على السلطان و انتهت ثوراتهم.
غلب المسلمون على القرى، و ذلك بتحول ميزان القوى العددية لصالحهم، و ذلك إثر موجات التحول التي كانت تأتي في أعقاب الثورات.

---

(١) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٦٢، نقلا عن: مقدمة السير الكبير لأبي زهرة
(٢) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج ١ ص ٧٤.
(٣) الكندي: الولاة و القضاة، ص ١٢٥- ١٨٥.
(٤) نفسه، ص ١٩٠ – ١٩٢.
(٥) المواعظ و الإعتبار، ج ١ ص ٧٩، ج ٢ ض ٤٩٤.

استعمل الأقباط بعد ذلك، أساليب المكر و الحيلة للكيد بالإسلام و أهله، و قد تمكنوا من ذلك بعملهم في الدواوين و كتابة الخراج، فصارت الأمور المهمة و الشئون المالية بأيديهم.

رابعاً: قضية نصارى الجزيرة و الحدود الشمالية

كانت الأوضاع السياسية للجزيرة في تلك الفترة سيئة و ذلك للثورات العديدة، خاصة زمن الرشيد، و هذا بالإضافة إلى التهديد المستمر على الأطراف. كما أن أحوال المنطقة الاقتصادية لا تقل سوءاً عن أوضاعها السياسية، و ذلك لاضطراب حبل الأمن و الانقطاع المتكرر لطرق التجارة، و هروب الفلاحين لقسوة الخراج مما أدى لتعطل الإنتاج و كساده.

و كان هناك ثمة سبب يحول دون عناية الدولة بهذه المنطقة، و هو فقد الثقة بين الدولة و سكان تلك المنطقة، حيث أن غالبيتهم مسيحيون، لديهم الاستعداد لمعادة الدولة الإسلامية و عدم الوقوف بجانبها، و ذلك للتباين الديني. و كان للدولة أسبابها في الريبة بهؤلاء السكان المتهمين لديها بعدم الولاء و الاتصال بأعدائها الروم.

و حدث أن الخليفة الرشيد في الرها، فجاءه وفدٌ من المسلمين يتهم النصارى بأنهم ضالعون مع الروم .. و أن إمبراطور بيزنطة يأتي كل سنة للصلاة في كنائس الرها، و طلبوا من الخليفة أن يأمرهم بهدم الكنيسة الكبرى و منع الضرب بالناقوس، غير أن وزيره يحي البرمكي نصحه بعدم الاستجابة لذلك(١).

و لعل الأوضاع السيئة في المنطقة مع التمزق الطائفي و التنوع العرقي هو الذي أدى إلى ظهور عددٍ من المتنبئين فيها(٢) منهم:
أنطونيوس الشهيد الذي صلبه الرشيد و حنا بربري الذي كانت حركته شعبية فلاحية تبعه فيها الكثيرون من أهل القرى مما هدد حتى الإقطاعيات الواسعة التي يملكها المسيحيون و الكنيسة على السواء، مما دعا هؤلاء للتعاون مع السلطة العباسية للقضاء عليه.

---
(١) تريتون: أهل الذمة في الإسلام، ص ١١٦.
(٢) البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص ٢٩٢.

ثم نجد " مارمارته" الذي جعل يبشر في عهد المأمون بالخلاص و ادعى القدرة على شفاء المرضى و قد تعاونت الكنيسة مع السلطة العباسية التي حاربته حتى القتل. و كانت تلك الحركات في الواقع تعبيراً عن الرفض للواقع الأليم. و كان تدخل السلطة العباسية لقمع تلك الحركات محدوداً يتم بالتعاون مع الكنيسة من جهة و مع المنفذين المسيحيين من جهةٍ أخرى.

أما المرة الوحيدة التي سجل فيها ما يمكن أن نطلق عليه أو ما يسمى تضييقاً على النصارى، إنما كان في أواخر عهد الرشيد – حين أمر و هو يحارب الروم – بمنع ضرب الناقوس في ملطية و منع سير الجنازات بالمواكب و عدم رفع الصلبان إلا في الكنائس[١]، و يعزى تصرف الرشيد ذلك، إلى أنه كان في حالة حرب مع الروم، و كان يعتبر ذلك العمل من ضرورات الدفاع و ضمان سلامة العمليات العسكرية.

خامساً: قضية قرارات التضييق على الذمة:

حسب ما يذكره المؤرخ السرياني ميخائيل الكبير، أن اضطهاد أهل الذمة بدأ مع بداية عهد المهدي، و أن عدداً من البيع قد هدم، و أن رقيق النصارى قد صودر أو بيع، و أن النصارى قد منعوا من اقتناء الرقيق[٢].

و لكن نجد أن ذلك القرار كان في سنوات حكم المهدي الأولى، حيث دمر الروم حصون و مدن الثغور، و سبوا و نهبوا تلك المنطقة، فلما كانت السنة السادسة من حكمه، و تمكن من رد الروم على أعاقبهم، أصدر أمره بإلغاء ذلك القرار.

ثم نسمع بعد ذلك أن الرشيد أصدر قراراً يأمر فيه بأخذ أهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم و ركوبهم[٣].

و لكن نجد أن ذلك القرار صدر نتيجة للحرب التي كانت في أوجها مع الروم، الذين كانوا يقومون بعمليات تدميرية لكل شيءٍ في منطقة الثغور، كما يبدو أن أمر الرشيد لم ينفذ إلا وقتاً قصيراً إذ يروى مؤرخ نسطوري قصة إلغائه، فيقول: " ... إن جبريل

---

(١) تريتون أهل الذمة في الإسلام، ص ١١٧.
(٢) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٦٧، نقلا عن:
Chroniques de Michel le Syrien (Trad. Chabot, Paris vol 11, P 478 - 480).
(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٨ ص ٣٢٤.

ابن بختيشوع الطبيب، دخل بطيلسان* مصبوغ على الرشيد، فأنكر الرشيد عليه، فقال: أنا أحد الذمة و لا يجوز أن أخالف زيهم.."(١) ، فاستحسن الرشيد ذلك منه و رفع الغيار عن النصارى.ثم تمر بعد ذلك خمس و أربعون سنة تقريباً، فنرى أمراً جديداً يصدر من الخليفة المتوكل ، فيه شيءٌ من التضييق على أهل الذمة ، و ذلك بتمييزهم في اللباس و المراكب و إنزال العقوبة بمن يخالف ذلك(٢).

و يضيف بن قيم الجوزية: أن المتوكل أفرد للذمة من يحتسب عليهم، و أمر ألا يستخدموا مسلماً في حوائجهم، و أن تفرد لهم حماماتٌ خاصة، خدمها من الذمة، ... و نهى أن يستعان بهم في الدواوين و أعمال السلطان التي يجري أحكامهم فيها على المسلمين، و نهى أن يظهروا في شعانينهم صليباً و أمر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلا تشبه قبور المسلمين(٣).

و مهما كان الأمر، فإن هذه التدابير ضد أهل الذمة، و ما أكتنفها من تمييز و تضييق، لم تتناول أبداً حرية المعتقد، فيمكننا أن نعتبرها عمليات دفاعية إلى حدٍ كبير.

و في البحث عن الأسباب التي أدت إلى نغمة المتوكل على أهل الذمة، نجد أن أمره الذي أصدره ضدهم يحتوي على عدة أسباب مجملةٍ هي :-

١- أن أهل الذمة يستعملون أساليب الدس و الوشاية بزملائهم الموظفين المسلمين، و ذلك لينفردوا هم بوظائف الدولة.

٢- أن أهل الذمة أخذتهم الحمية و العصبية، و ذلك لازدياد و كثرة المباشرين منهم للأعمال في زمان المتوكل، حيث كانت معظم الأعمال الكبيرة و الهامة بأيديهم في جميع النواحي(٤)

٣- ما اتصف به أهل الذمة من خيانةٍ و غدر، و إقتناع المتوكل بإتصالهم بالروم، و كان ذلك مما يؤرقه، خاصةً و أن الروم كانوا يتوسعون في التجسس و التسلل

---

* الطيلسان: من الثياب و هو المغور الطرفين، المكفوف الجانبين، الملفوف بعضه إلى بعض، و هو لباس اليهود و العجم. ابن القيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج ٢ ص ١٧٦.

(١) ماري بن سليمان: أخبار البطاركة، ص ٧٣.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم و الملوك، ج ٩ ص ١٧٢- ١٧٤.

(٣) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج ١ ص ١٧٣.

(٤) ابن قيم الجوزية: المرجع السابق، ص ١٧١.

بواسطة أعوانهم داخل الأراضي الإسلامية و إثارة الفتن و القلاقل، كتحريضهم للأرمن على الثورة سنة ٢٣٧هـ / ٨٥١م مما كلف المتوكل الكثير من المال و الجهد.

٤- البغي و الظلم من جانب أهل الذمة، فقد زاد العمال الذميون في التسلط و اضطهاد الناس و ظلمهم ، و وصلت إلى الخليفة المتوكل كثيرٌ من الشكاوي و التظلمات(١).

٥- الحلف الذي عاد بقوة بين السلطة العباسية و أهل السنة بعد انحسار موجة الإعتزال، و القول بخلق القرآن. فإن انتصار المذهب السني و إبعاد المعتزلة عن مركز النفوذ، أعطى الفقهاء و المحدثين مدداً كبيراً من القوة أبعدوا معه علم الكلام و أهل الجدل عن الدولة، و هذا بلا شك استتبع أهل العقائد الأخرى من المجادلة، فقد كان جدلهم و ما يبعثونه من الأسئلة و الأفكار هو السبب في نشوء علم الكلام و بمعنى آخر فقد غير الفقهاء السنيون، بعد انتصارهم على المعتزلة الطريقة التي كانت متبعة مع أهل الذمة، وهي طريقة الحوار و الجدل بالتي هي أحسن، إلى طريقة التضييق و التمييز، ليكون ذلك نوعاً من الضغط عليهم ، و شكلاً من أشكال الاعتزاز بالدين الإسلامي، والفخر به ، و الارتفاع به عن أن يكون موضع جدلٍ و أخذٍ و عطاء... و في خطاب المتوكل الصادر ضد أهل الذمة و أمره ما يوضح ذلك(٢).

إذن تلك محاولة من السلطة العباسية لمنع جدل أهل الذمة مع المسلمين، بعد أن أوقفت جدل المسلمين معهم، و ذلك لإقصاء أهل الكلام.

و مما يجب ملاحظته، أن انتصار مذهب أهل السنة و سيطرته على البلاط العباسي لم يصب أهل الذمة و المعتزلة و حدهم بالإبعاد و الأذى، ولكنه أصاب أيضاً فرقة الشيعة و الشاهد هنا، ذلك الأمر الذي أصدره المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي ابن أبي طالب في كربلاء سنة ٢٣٦هـ / ٨٥٠م. و منع الناس من إرتياده(٣). و عليه نجد أن ردة الفعل لم تصب السنيين فقط، و لكنها أصابت حتى بعض فرق المسلمين.

---

(١) ابن القيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج ١ ص ١٧٣.
(٢) الطبري: تاريخ الأمم و الملوك، المجلد الخامس، ص ٣٠٤.
(٣) نفسه، ص ٣١٢.

و ممـــا هو ملاحظ هنا أن فقهاء السنة و أهل الحديث قد ربطوا بين أهل الذمة و الزندقة، و اتخذوا من ذلك سلاحاً ضدهم.

و يوضح لنا " الجاحظ " أيضاً في رسالته المشهورة إذ يقول: " ... فلولا متكلمو النصارى و أطباؤهم و منجموهم ما صار إلى أغبيائنا و ظرفائنا و مجاننا شيءٌ من كتب المثالية* و الديصانية و المرقيونية و العليانية* ولما عرفوا غير كتاب الله و سنة نبيه..."[١].

و يقول الجاحظ أيضاً "... دينهم يضاهي الزندقة و يناسب في بعض وجوهه قول الدهرية... إننا لم نر أهل ملةٍ قط أكثر زندقة من النصارى"[٢].

فنرى هنا المسلمين استخدموا كافة الأسلحة ضد المسيحية التي ضعفت كثيراً بانفضاض الأعداد الكثيرة من الناس عنها.

و مما لا شك فيه أن التحاسد بين جماعات أهل الذمة و المسلمين في تنافسهم النفوذ في الدولة، قد كان له دوره الكبير في هذه العملية.

و إذا نظرنا إلى أوامر و قرارات الخليفة المتوكل[٣]، ضد أهل الذمة و التي تتلخص في إلزامهم بالغيار في ملابسهم و ركوبهم و الأمر بهدم بيعهم المحدثة و عدم الاستعانة بهم في الدواوين التي تجري أحكامهم فيها على المسلمين و غير ذلك، نستخلص من كل ذلك بعض النتائج الآتية:-

١- أن تلك القرارات و الأوامر لم يقصد بها الاضطهاد و إنما كانت قرارات تضييق و تمييز، فهي لم تمنعهم من العبادة و لا أجبرتهم على تغيير دينهم، كما أنها لم تهدم من بيعهم و أماكن عبادتهم إلا ما استحدث، كما أنها لم تخرجهم من كافة الأعمال و الوظائف، بل أخرجتهم من تلك الوظائف التي يتحكمون فيها على

---

* المثالية: فرق غالبة تقول بحلول الألوهية في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، المختار في الرد على النصارى، ص ٩٢.

* العليانية: فرق تفضل علي بن أبي طالب على رسول الله صلى الله عليه و سلم، المختار في الرد على النصارى، ص ٩٢.

(١) الجاحظ: المختار في الرد على النصارى، ص ٩٢.

(٢) نفسه، ص ٨٧.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، المجلد الخامس، ص ٣٠٤.

المسلمين، هذا بجانب لم تلحقهم إهانةٍ من تلك القرارات، و لكن فرض عليهم التميز باللباس و المركوب ليعرفوا ضمن المجتمع الإسلامي، كما أوقفت جدلهم اليومي مع المسلمين.

٢- أن تلك القرارات لم تكن صارمة التطبيق إلا في بغداد و العراق، و كانت حدتها تقل و تخف كلما ابتعدنا عن مركز الدولة، كما أن ولاة الأقاليم لم يتشددوا فيها إلا في الأيام الأولى من صدورها، و كانت قوتها تخف مع الأيام و مرورها و تطبيقها يلغى في الواقع العملي.

٣- و بعد هذا و ذاك نجد أن الخليفة المتوكل نفسه قد تراجع عن تلك القرارات و التدابير، وذلك بعد أربع سنوات من صدورها[١]، فنسمع عنه أنه استقبل بالزهور و الرياحين، و القباب المعقودة من قبل مطران "نصيبين" أثناء مروره بالشام، "فخف ما في قلبه على النصارى" كما يقول مؤرخ نصراني[٢]، ثم "تعطف على النصارى" بعد عودته إلى "سر من رأي" و أطلق سراح بطريكهم السجين "تاذاسيس"، و اتفق في ذلك اليوم موت "يوحنا بن ماسويه" الطبيب و كان عزيز عليه، فأمر في تبجيله و إكرامه في تجنيزه، و سمح بدخول "تاذاسيس" مع القسس إلى بغداد، فدخلها أحسن دخول بالإكرام و التبجيل، و لعل ذلك كان حوالي سنة ٢٤٠هـ. إذن لم تدم الأزمة ضد النصارى و أهل الذمة أكثر من أربع سنوات إلى خمس.

كما يورد البلاذري[٣]، أن المتوكل خفض الجزية سنة ٢٤٦هـ عن السامريين و اليهود في "بيت ماما" قرب نابلس، حين شكوا إليه ضعفهم و عجزهم، فجعلها ثلاثة دنانير بدلاً من خمسة.

و عليه فمن خلال تلك الدراسة نجد أن صورة الاضطهاد التي تعزى في العادة إلى العصر العباسي الأول، ليست صورة حقيقية، و إن كان تكاثر المسلمين العددي، و وجود الحكم في أيدي الخلفاء المسلمين، قد جعل معاملة المسلمين لأهل الذمة تتسم بالقسوة في بعض الأحيان، دون أن تصل في أي وقت من الأوقات درجة الاضطهاد و حجر

(١) شاكر مصطفى: دولة بني العباس، ج ٢ ص ١٧٧.
(٢) ماري بن سليمان: أخبار البطاركة، ص ٨٠.
(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٦٣.

الحرية الدينية، فإن فرط الحساسية الذمية بالمقابل جعل مؤرخي الذمة و المستشرقين يبالغون في تقدير القيود الاجتماعية و المظالم المالية التي كان يتعرض لها الذميين.

و كان الخلفاء العباسيون يتأرجحون في قراراتهم بين حاجتهم إلى كفاءات أهل الذمة من ناحية، و ما يقومون به من أعمالٍ هامة للدولة، و بين إلحاح الفقهاء و المحدثين لإبعاد أهل الذمة من مناصب الدولة من جهةٍ أخرى ، و إزاء هذه المعادلة المعقدة كانوا يرجحون الأولى عن الثانية في كثيرٍ من الأحيان، و إن سايروا في بعض الأحايين الداعي السياسي في مكافحة الروم بالتضييق على الذمة.

كما نجد أن أهل الذمة بدورهم لم يدخروا وسعاً في استخدام أقصى حريةٍ ممنوحة لهم للجدل مع المسلمين و التأليف للكتب ضدهم و الاتصال بالروم، و الاستفادة من كل الامتيازات المتاحة لهم ضد الجماعة الإسلامية.

خاتمة

١ـ الإضافات التي أضافها البحث :-

يعتبر هذا البحث إضافة جديدةً في موضوعه المحدد "أهل الذمة في العصر العباسي الأول ١٣٢هـ ـ ٢٤٧هـ (٧٥٠م – ٨٦١م)، و ذلك ندرة ما كتب فيه من منظور تاريخي.

فقد عالج البحث ما كان عليه من وضع أهل الذمة فعلاً في المجتمع العباسي الأول و أبان تفاعلهم في ذلك المجتمع.

فقد كفل لهم الإسلام كل حقوق المواطنة باعتبارهم رعايا دولة وطبقة من طبقات المجتمع، فقد تمتعوا بالحماية و الرعاية الحسنة، و فق العهود و المواثيق المبرمة بين الطرفين.

فمشاركة أهل الذمة في المجتمع الإسلامي و تفاعلهم فيه، و ما تقلدوه في الدولة من وظائفٍ و مهام مختلفة، و ما عاشوه من حرياتٍ واسعة في ظل الدولة الإسلامية منذ العهد النبوي و حتى العصر العباسي الأول ، و ما عبروا عنه من أفكارٍ و معتقداتٍ و مذاهبٍ لهو أكبر دليل لدحض الادعاءات و الافتراءات التي تدعي أن أهل كانوا منبوذين و مضطهدين داخل الدولة الإسلامية.

هذا و مما أكسب أهل الذمة التقدير و الإحترام من قبل الحكام وعامة الشعب، ذلك الدور الذي قاموا به في المجتمع الإسلامي، مما كان له أثره في الحياة العلمية، بما أضافوه من جهودٍ علميةٍ مقدرة، في مجال الجدل و التصانيف و الرسائل و المؤلفات العديدة في شتى أنواع المعارف و الفنون.

كما عالج البحث ما أثير من مضايقاتٍ و عقباتٍ واجهت أهل الذمة في العصر العباسي الأول، فقد أن لذلك أسبابه و مبرراته، و هي على كل حالٍ لم تكن تمييزاً بسبب المعتقد أو العرق أو تصل ما يمكن أن يطلق عليه اسم اضطهاد. حيث كانت تلك المراسيم و القرارات الخاصة تسن لفترةٍ زمنيةٍ محددةٍ ثم يتغافل عنها المسئولون و لا يعمل بها إلا في نطاق محدود[1].

فكانت تلك القرارات و المراسيم تحركها أسبابٌ عديدة، منها الاعتزاز بالإسلام من جانب المسلمين، و منها أحداث الحرب مع دولة الروم و ما يتبع ذلك من ريبة في موالاة أهل الذمة للروم النصارى ثم ما يمارسه رجال الدين المسلمين من ضغطٍ على الحكام، و يتم ذلك في الأمور التي تتعلق بعسف و سوء معاملة الموظفين من أهل الذمة لعامة المسلمين.

كما أوضح البحث أن المضايقات التي تصيب أهل الذمة، عبارة عن إجراءات ضروريةٍ دفاعيةٍ أملتها الظروف المسببة لها، و مثلها كان يصيب بعض الفرق الإسلامية كالشيعة و المعتزلة و غيرهم في كثيرٍ من الأحيان.

و رغم ما أثير عن تلك المضايقات فإنها لم تحد أو تقلل من مشاركة أهل الذمة في الدولة الإسلامية و مجتمعها، و لم تثنهم عن نشاطاتهم الفكرية، و التمتع بحقوقهم العامة و الخاصة، و ممارسة حريتهم التامة في معتقداتهم و التبشير بها.

و عليه يمكن تصنيف تلك المضايقات التي عانى منها أهل الذمة في ذلك العصر، ضمن ما تقوم به الدولة من سنٍ للقوانين و المراسيم الخاصة بغرض فرض السيادة و هيبة الدولة، و كبح جماح من يقف في وجه ذلك.

(١) تريتون: أهل الذمة في الإسلام، ص ٢٧٥.

٢ـ التوصيات:

آمل و أرجو أن تجد الدراسة عن أهل الذمة ، واسع الاهتمام و البحث الدقيق و العميق من مؤرخينا و باحثينا، و ذلك لتكتمل الصورة إظهاراً للحق الذي نسعى جميعاً إليه.

و أتمنى أن تتناول الدراسات و البحوث قضايا أهل الذمة المختلفة و قضايا ما يمكن أن نطلق عليه اسم الجماعات غير الإسلامية التي تعيش بين دولنا الإسلامية المعاصرة و في مجتمعاتنا الإسلامية فقد يؤدي ذلك لعلاج كثير من القضايا التي أعاقت مسيرة تقدم الأمة الإسلامية.

كما أتمنى أن تتناول البحوث و الدراسات الاهتمام بقضايا الأقليات المسلمة في الدول غير المسلمة، حتى تساهم في علاج قضاياها مما يجعلها تقوم بدورها و إسهامها في دفع عجلة الحضارة الإسلامية ليعم الخير و السلام أرجاء المعمورة.

ثبت المصادر و المراجع

(أسماء الأعلام مجردة من " ال، ابن، و أبو")

أولاً المصادر:-

ابن الأثير (٦٣٠هـ / ١٢٣٨م): عز الدين علي بن أحمد بن محمد الجزري الشيباني.

-١ الكامل في التاريخ، طبعة بيروت ١٩٦٥م.

أحمد بن حنبل، الأمام (٢٤١هـ)

-٢ مسند الإمام أحمد، المطبعة الميمنية بمصر، الطبعة الأولى ١٣١٣هـ.

الأشعري (ت ٣٣٠هـ): أبو الحسن علي بن اسماعيل.

-٣ مقالات الإسلاميين و اختلاف المصليين، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م

الأصفهاني (٣٥٦هـ ١٩٦٧م): أبو الفرج

-٤ الأغاني، دار الكتب، القاهرة ١٩٢٥م – ١٩٧١م ، (أجزاء متفرقة).

(ابن أبي) أصيبعة (٦٦٨هـ ١٢٧٠م): موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم.

-٥ عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت ١٩٦٥م.

البخاري (ت ٢٥٦هـ): الأمام محمد بن اسماعيل.

-٦ صحيح البخاري، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت،الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٧م

البلاذري (٢٧٩): أبو الحسن أحمد بن يحي بن جابر بن داؤد البغدادي.

-٧ فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

-٨ أنساب الأشراف، (الجزءان الرابع و الخامس)، فلسطين ١٩٣٨.

الجاحظ (ت ٢٥٥هـ): أبو عثمان عمرو بن بحر.

-٩ المختار في الرد على النصارى، دار الصحوة القاهرة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.

الجصاص (ت ٣٧٠هـ): أبو بكر أحمد بن علي الرازي.

-١٠ أحكام القرآن، مطبعة الأوقاف الإسلامية، الأستانة ١٣٣٥هـ.

الجهشاري(٣٣١هـ): أبو عبد الله محمد بن عبدوس.

-١١ الوزراء و الكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨.

(ابن) حوقل (القرن العاشر الميلادي): أبو القاسم النصيبي.

١٢- صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (بدون تاريخ)

الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ ١٠٧٠م): أبو بكر أحمد بن علي.

١٣- تاريخ بغداد، طبعة القاهرة ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م.

(ابن) رستة (٣٦٠هـ / ٩٧١م): أبو على أحمد بن عمر.

١٤- الأعلاق النفيسة، ليدن ١٨٩٢م.

(ابن) رشد (ت ٥٩٥هت): أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد.

١٥- بداية المجتهد و نهاية المقتصد، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.

الزركلي، خير الدين

١٦- الأعلام (سير و تراجم)، بيروت ١٩٨٤.

ساويرس بن المقفع.

١٧- سير الآباء البطاركة، باريس ١٩٠٧م.

السرخسي(ت حوالي ٤٩٠هـ): شمس الأئمة أبي بكر محمد.

١٨- شرح السير الكبير، حيدر أباد، الهند، الطبعة الأولى ١٣٣٥هـ.

الشهرستاني (٤٧٩هـ ٥٤٨هـ): أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر الشيباني.

١٩- الملل و النحل، دار المعرفة، بيروت ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م

الشوكاني (ت ١٢٥٥هـ): محمد بن علي محمد الصنعاني.

٢٠- نيل الأوطار شرح منقى الأخبار من أحاديث سيد الخبار، المطبعة العثمانية مصر، ١٣٥٧هـ

الطبري (٢٢٤هـ ٣١٠هـ): أبو جعفر محمد بن جرير.

٢١- تاريخ الأمم و الملوك، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

(ابن) عبد الحكم (٢٧٦هـ / ٨٨٩م): أبو القاسم عبد الرحمن القرشي المصري.

٢٢- سيرة سيدنا عمر بن عبد العزيز، المطبعة الرحمانية بالقاهرة ١٩٢٧م

(ابن) عبد ربه (٣٤٩ هـ ٩٤٠م):شهاب الدين أحمد.

٢٣- العقد الفريد، مطبعة الإستقامة، القاهرة ١٩٤٠.

(ابن) العبري (٦٨٥هـ / ١٢٨٥م): أبو الفرج غريغوريوس بن هارون الملطي.

٢٤- تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٩٨٥م.

(أبو) عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ):

٢٥- كتاب الأموال، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م

عمرو بن متى (القرن الثامن الهجري):

٢٦- أخبار بطاركة كرسي المشرق، رومية ١٨٩٦م.

القفطي (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م): الوزير جمال الدين.

٢٧- إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ليبزج ١٣٢٠هـ.

(ابن) قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ): شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر

٢٨- أحكام أهل الذمة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

٢٩- زاد المعاد في هدى خير العباد، مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٣هـ.

الكاساني (٥٨٧هـ): علاء الدين أبي بكر بن مسعود.

٣٠- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، المطبعة الجمالية، مصر ١٣٢٧هـ / ١٣٢٨هـ.

الكندي (٣٥٠هـ / ٩٦١م): أبو عمر محمد بن يوسف.

٣١- كتاب الأمراء و الولاة و القضاة، ليدن ١٩١٧م.

ماري بن سليمان (نهاية القرن السابع هـ):

٣٢- أخبار بطاركة كرسي المشرق، روما ١٨٩٩م.

الماوردي (ت ٤٥٠هـ): أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب.

٣٣- الأحكام السلطانية، دار قتيبة، الكويت، الطبعة الأولى ١٠٩ ١هـ / ١٩٨٩م.

مجد الدين الفيروزبادي:

٣٤- القاموس المحيط، دار المأمون، القاهرة، الطبعة الرابعة ١٣٥٧هـ.

(ابن) المرتضى (٣٢٥هـ / ٩٣٦م): المهدي لدين الله محمد بن يحي.

٣٥- طبقات المعتزلة، بيروت ١٩٦١م.

المقريزي (٨٤٥هـ / ١٤٤١م): تقي الدين أحمد بن علي.

٣٦- إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء و الأموال و الحفدة و المتاع، مطبعة لجنة التأليف و النشر، القاهرة ١٩٤١م.

٣٧- المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط والآثار، بيروت ١٩٦٢م.

(ابن)النديم (٣٨٣هـ / ٩٩٣م): محمد بن اسحق.

٣٨- الفهرست(سير و تراجم)، المطبعة الرحمانية، القاهرة ١٣٤٨هـ.

ياقوت الحموي (٦٢٧هـ / ١٢٣٠م): ياقوت بن عبد الله الرومي.

٣٩- معجم البلدان، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٥٥م.

اليعقوبي (٢٨٢هـ / ٨٩٥م): أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن واضح.

٤٠- تاريخ اليعقوبي، طبعة النجف ١٩٣٩م.

٤١- كتاب البلدان، القاهرة ١٩٣٩م.

أبو يعلي الحنبلي (ت ٤٥٨هـ): محمد بن الحسين الفراء.

٤٢- الأحكام السلطانية، مطبعة الحلبي بمصر، الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.

أبو يوسف (ت ١٩٢هـ): يعقوب بن إبراهيم.

٤٣- كتاب الخراج، بيروت، لبنان(بدون تاريخ).

ثانياً : المراجع العربية:

١- أحمد أمين: ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة العاشرة ١٩٣٣م.

٢- أحمد علي سير المباركي (بالاشتراك مع) عبد الله بن عبد الله الزايد و عبد الله بن عبد المحسن الطريقي: السياسة الشرعية، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م

٣- حسن إبراهيم حسن (الدكتور): تاريخ الإسلام السياسي و الديني و الثقافي و الاجتماعي، بيروت – القاهرة، الطبعة الرابعة عشر ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

٤- حسن الزين: أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي، بيروت ١٩٨٢م.

٥- حسن علي حسن (بالاشتراك مع) التوم الطالب: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٦- الدبس، إلياس: تاريخ سورية، بيروت ١٩٠٠م.

٧- شاكر مصطفى: دولة بني العباس، الكويت، الطبعة الأولى ١٩٧٣م.

٨- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، ج.م.ع.، الطبعة الثامنة ١٩٦٦م.

٩- صبحي الصالح: النظم الإسلامية نشاتها و تطورها، دار العلم للملاين، بيروت، الطبعة الثامنة ١٩٩٠م.

١٠- عبد الكريم زيدان: أحكام الذميين و المستأمنين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

١١- علي حسني الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٦٠م.

١٢- فتحية عبد الفتاح النبراوي: تاريخ النظم و الحضارة العربية الإسلامية، دار الفكر، العرب، القاهرة، الطبعة السابعة ١٩٤٤م.

١٣- كامل سعفان: اليهود تاريخاً و عقيدة، (كتاب الهلال، العدد ٣٦٤)، جمادي الأولى ١٤٠١هـ (أبريل ١٩٨١م).

١٤- محمد رشيد رضا: تفسير المنار، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٣٠هـ.

١٥- محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة ١٩٦٩م.

١٦- محمود إسماعيل: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

ثالثاً: المراجع المترجمة و الأجنبية:-

١- أرنولد، توماس: الدعوة إلى الإسلام (ترجمة حسن إبراهيم حسن)، القاهرة ١٩٦٤م.

٢- بارتولد، ف : تاريخ الحضارة الإسلامية (ترجمة حمزة طاهر)، دار المعارف بمصر الطبعة الخامسة ١٩٨٥م.

٣- تريتون، أ. س :أهل الذمة في الإسلام ترجمة (حسن حبشي)، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٦٧م.

٤- ديمومبين، مورس غودفرا: النظم الإسلامية (ترجمة صالح الشماع و فيصل السامر)، بغداد ١٩٥٢م.

٥- فيليب حتى: تاريخ العرب، (ترجمة المؤلف و زميليه أ. جرجي و ج. جبور) القاهرة ١٩٤٩م.

٦- هل،ي: الحضارة العربية (ترجمة إبراهيم أحمد العدوي)، كتاب الهلال، ج.م.ع، العدد ٣٤٢، يونيو ١٩٧٩م.

٧- SHED, (W. AMBROSE): ISLAM AND THE ORIENTAL CHU RCHES, PHILADELPHIA, 1904.